بواعث التجديد البلاغيّ، بين الأصـــالة والمعاصرة

أ.م.د. هناء عبد الرضا رحيم

المقدمة :

إنّ التجديد في أيّ علم هو وجه من وجوه التعامل مع التراث على أساس المعاصرة، وهو ضرورة ملحّة يتلمسّها الباحثون بقدر الأسباب الداعية إليه، وسمة من سمات التوسّع في اللغة شرط أن تأتي عفواً لا أن تُقسر على العلم الواقعة فيه قسراً فتتدخّل فيه عوامل خارجة عن ضرورات هيكليّته، أو تُستجلب له تجارب لغات أخرى لا تكاد تتّفق وطبيعة لغته وخصوصيّاتها. والبلاغة بوصفها علماً من علوم الثقافة العربيّة الإسلاميّة نشأت نتيجة حاجة داخليّة تكمن في الثقافة نفسها ولم تكن بسبب تأثير خارجيّ، إذ كان الهدف منها هو استثمار النصّ القرآنيّ في مجال الشريعة والعقيدة معاً، فمن جهة كان لا بدّ من استنباط الأحكام الشرعيّة من القرآن الكريم من المعرفة المقنّنة بأساليبه في التعبير، ومن جهة ثانية كان لا بدّ لمواجهة المنكرين لإعجاز القرآن من بيان وجوه هذا الإعجاز(١)، ومن هنا فهي مدينة في نشأتها إلى المتكلّمين الأوائل ولا سيّما المعتزلة إذ كان عليهم مواجهة تيارات الخصوم من المنكرين لقضيّة الإعجاز القرآنيّ فاستعانوا في مواجهاتهم تلك بثقافة منطقيّة وفلسفيّة كانت سبباً في نشأة البلاغة واستقرارها علماً مستقلاً بذاته، وسبباً في جموده –فيما بعد– نتيجة طغيان هذه المسحة الجدليّة على مباحثه.

والدعوة إلى محاولة تخليص البلاغة من هذا الجمود الذي لحقها لقيت آذاناً صاغية عند القدماء فضلاً عن المحدثين، فالمؤلّفات البلاغيّة بمجملها تدور حول القسم الثالث من كتاب السكاكيّ (ت٦٢٦هـ): (مفتاح العلوم)، وتعتمد أساليبه الكلاميّة في طرح الموضوعات ومعالجتها، لا بل قد تزيد عليه، وهي سمة وسمت المؤلّفات البلاغيّة عموماً، حتّى في زمن القزوينيّ (ت٧٣٩هـ) الذي انتبه إلى هذه القضيّة وحاول أن يتخلّص منها من

خلال وضعه تلخيصاً لكتاب السكاكيّ- في الجزء الخاصّ بالبلاغة- ثمّ أدرك أنّه لم يبلغ الهدف الذي توخّاه فعمد إلى وضعه شرحاً على التلخيص الذي وضعه أسماه (الإيضاح)، ومع الأسف أيضاً فهو لم يحقّق الهدف المرجوّ.

ومن هنا كانت الدعوة إلى تخليص البلاغة من مباحث المنطق والفلسفة دعوة قديمة في بابها ولكنّها كثرت في العصر الحديث نتيجة الانقطاع عن التواصل مع كتب البلاغة التراثيّة، لأسباب كثيرة، فتفاوتت جدّة هذه الدعوات وآليّة التجديد الواقعة فيها بحسب البواعث التي تختفي وراءها، ولو حاولنا أن نستنطق الضرورات الداعية إلى هذه المحاولات لوجدناها تتراوح بين محورين:

- **المحور الأوّل:** المحافظة على الأصالة، إذ مثّلت لبّ الدعوة إلى المحافظة على التراث، والتركيز على أصالة علم البلاغة، وفي ضوء هذا المحور تعدّدت دعوات التجديد بين:

- الدعوة إلى المحافظة على الهدف الرئيس من إنشاء البلاغة، وهو خدمة قضيّة الإعجاز القرآنيّ، فظهرت مجموعة من الدراسات التي دعت إلى شموليّة تطبيق مفهوم الإعجاز على الشواهد القرآنيّة التي تضمّنتها والتي لم يشر إليها القدماء في دراساتهم.

- محاولة بعث التراث من جديد وذلك بإعادة التأليف على وفق طريقة القدماء من البلاغيّين من دون محاولة إجراء تغيير يمسّ الأصول العامّة للبلاغة أو مقاييسها.

- الدعوة إلى تيسير البلاغة باختصارها وإيجازها بإدخال مباحث بلاغيّة في أخرى ودمجها مع بعضها بعضاً، والتقليل من المصطلحات البلاغيّة المستعملة، والدافع هو التخلّص من سمة التعقيد الناتجة عن اعتماد المنطق والجدل في الكلام، وهو أمر ساد في بعض ميادين المؤلّفات البلاغيّة القديمة ولكنّه لا يتّفق والمؤلّفات المعاصرة.

- **المحور الثاني:** تحقيق المعاصرة وقد تعدّدت وجوه التعامل مع هذا المفهوم من خلال استبعاد التراث جزئياً، أو كليّاً، ومن هذه المحاولات:

- الدعوة إلى استقطاب التجارب الأدبيّة الغربيّة الحديثة، ومحاولة استثمار ما يمكن استثماره في

خدمة علم البلاغة، فالتجديد لا يعني الانسلاخ من الماضي واستيراد الحديث بكلّ عناصره أو نقل تجارب اللغة الصادرة عنها بكلّ حيثيّاتها.

–الدعوة إلى استيراد التجارب الغربيّة بكلّ حيثيّاتها الايجابيّة والسلبيّة، وتطبيقها على علم البلاغة مباشرة، ممّا أدّى في غالب الأحيان إلى إقسار التجارب الغربيّة وإقحام تطبيقاتها على اللغة، فضلاً عن استيراد المصطلحات وتعريبها فسبّب ذلك تكثيف الاستعمال لمصطلحات مختلفة لظواهر متشابهة.

وما بين هذين المحورين تراوحت المحاولات وتعدّدت، فضمّت بين جنباتها دفاعاً عن البلاغة أو هجوماً عليها، وعلى الرغم من هذا التعدّد فإنّنا لا نجد اتجاهاً ثابتاً في النظر إلى محور فكرة التجديد، فقد اتّسمت هذه المحاولات بالتغيير وعدم الاستقرار في التوجّه المقصود من محور التراث أو المعاصرة، وهو أمر لا نراه في محاولات التجديد التي ظهرت في بقيّة علوم اللغة العربيّة، ففي علم النحو– مثلاً– اتّفقت المحاولات – غالباً– على محور واحد هو تيسير قواعد النحو، أمّا أساليب التجديد في علم البلاغة فقد اختلفت فلا نجد هذا الاتّحاد أو الاتفاق على المحور الذي يضمّها تحت لوائه، ومع ذلك فهناك محاولات يُشار إليها بالبنان، كان لها أثرها الواضح في تطوير البلاغة، إذ صدرت عن حاجة استوجبتها المرحلة التاريخيّة التي ظهرت فيها، فمفاهيم البلاغة تمّت واكتملت، ومصطلحاته استقرّت وانتهت، فينبغي أن يتمّ إكمال هذه المفاهيم بتعميم تطبيقاتها حتّى تكتمل الفكرة، فليس المقصود بالتجديد إهمال خصوصيّات البلاغة بل محاولة استيعاب التطوّر الحاصل في مناهج اللغة والفكر المعاصر من دون أن يستوجب خروجاً عن ذاتيّتها.

وعملنا في هذا البحث يتضمّن استقراء بعض محاولات التجديد المعاصرة– لأنّها تشكّل الكثرة الكاثرة – ووضعها فوق مائدة النقد والتدقيق للوصول إلى تقييم شامل لظاهرة التجديد في علم البلاغة على أساس موقفها من التراث أو المعاصرة، والتوجيه نحو كيفيّة الإفادة من هذه المحاولات بما يخدم هذا العلم ويطوّر ميادين تطبيقاته، وبيان مدى مصداقيّة الهدف المتوخّى من هذه المحاولات على أرض الواقع.

وفي ضوء التقسيم الذي استعرضناه سابقاً لمحاور محاولات التجديد سوف يجري عرضنا للمؤلّفات المطروحة في ميادينها المحدّدة لها، وسنبدأ مع مفردات المحور الأوّل:

- المحور الأوّل: الأصالة:

شكّل جوهر هذا المحور الدعوة إلى المحافظة على التراث من خلال العودة إليه باعتماد المؤلّفات البلاغيّة بغضّ النظر عن صلاحيّتها أو عدم صلاحيّتها للتطوّرات الحاصلة في البيئة العلميّة، والسبب هو أنّ نشأة البلاغة نشأة دينيّة في أصولها؛ لذا كان من الطبيعي أن تحفل هذه المؤلّفات وما تمّ تأليفه فيما بعد بهذا الكمّ من المصطلحات الكلاميّة، أو القضايا الجدليّة، أو كثرة التقسيمات من منطلق طبيعة النشأة تلك، وللمحافظة على هذا الأصل فلا بدّ من أن لا تخرج الدعوة إلى التجديد عن أحّد هذه الأمور:

١- المحافظة على الغاية التي نشأت من أجلها البلاغة، وهي خدمة قضيّة الإعجاز القرآنيّ، فالبلاغة نشأت أصلاً لخدمة هذه القضيّة، ومن الوفاء لها إعادة بعث هذا الهدف من خلال توسيع ميدان التطبيق البيانيّ على النصّ القرآنيّ لتحقيق الامتداد الطبيعيّ للمؤلّفات التي خدمت هذه القضيّة في التراث، وتحقيق التطوّر المطلوب للبلاغة من خلال تحقيق مفهوم الإعجاز على كلّ النصّ القرآنيّ من دون الاكتفاء بالشواهد البيانيّة الموجزة التي ذكرها القدماء أو التي لم يذكروا لها تطبيقاً في مؤلّفاتهم، ويدخل في هذا الباب أيضاً المؤلّفات التي حاولت إعادة النظر في مكوّنات علم البلاغة في ضوء هذا الهدف.

وإذا ما نظرنا – على وفق هذا المنظور- إلى محاولات التجديد لوجدنا أنّ محاولة الدكتور محمد رجب البيّوميّ في كتابه (البيان القرآنيّ) تدخل ضمن هذا الباب، إذ دعا المؤلّف إلى محاولة إيجاد تطبيق شموليّ لمباحث البلاغة على بيان إعجاز النصّ القرآنيّ، فالإيجاز، والإطناب، والتشبيه، والكناية، والاستعارة، وغيرها من الفنون التي لا ينبغي أن يستدلّ عليها من خلال الآية الواحدة، وإنّما يلزم الأمر دراستها في السورة القرآنيّة بأكملها(٢)، ثمّ دعا إلى دراسة البلاغة القديمة على هدي من علم النفس، ومن علم الأدب(٣).

ويدخل ضمن هذا الباب أيضاً محاولة عبد الحميد الفراهي في كتابه (جمهرة البلاغة)، إذ دعا إلى تأسيس فنّ البلاغة على أسس منبثقة من القرآن الكريم وكلام العرب الأقحاح، وأرجع سبب الجمود الذي لحق البلاغة إلى ذهاب البلاغيّين في مؤلّفاتهم مذهب العجم (٤)، وابتعادهم عن مذهب العرب في كلامهم من اعتماد الذوق والفطرة، وقصد المؤلّف ببلاغة العجم البلاغة المتأثّرة بالمنطق، وحثّ على اتبّاع بلاغة العرب، إذ قال عن البلاغيّين: ((**فلو التزموا كلام العرب ولم يلتفتوا إلى أصول مهّدها المبعدون، لكان خيراً لهم، وكانوا أقرب إلى معرفة إعجاز القرآن من طريق الذوق، وإن لم يكونوا من طريق الصناعة**))(٥)، أي أنّ أصول البلاغة ينبغي أن تستمد من الكلام الذي يدرس لا من كلام لغة أخرى وهو يشير بذلك إلى أثر الفكر المنطقيّ لأرسطو في البلاغة، مناقشاً بعض المفاهيم التي شاعت في الفكر البلاغيّ متأثّرة به، مثل: أحسن الشعر أكذبه، ومن كمال البليغ أن يكون حاذقاً في استعمال التشبيه، ومبيّناً موقفه من هذه المقولات في ضوء نصوص القرآن الكريم وبلاغته، وعامداً إلى نقض الأساس الذي بني عليه المنطق الأرسطيّ من نظريّة المحاكاة(٦).

ولكي يتوصّل المؤلّف إلى محاولته بعث البلاغة في ضوء القرآن الكريم وكلام العرب قسّم البلاغة على وفق تقسيم جديد لمباحثها، ففصلها إلى جزئين:

- **الأوّل:** القسم العموميّ: ويشتمل على: مطابقة الكلام، والوضوح، ونفي الفضول، وحسن الترتيب، والمقابلة، والتشبيه، والتمثيل من جهة الوضوح، وتنقيح اللفظ من المطابقة، وهذه الموضوعات بحثها البلاغيّون القدماء في مؤلّفاتهم، ثمّ تحدّث عن: سذاجة الكلام، والترتيب، والمقابلة، وتمييز المعاني وفرق درجاتها، وتنقيح الألفاظ، وأصول الإيجاز والإطناب، وادّخار الألفاظ والأساليب، ومنهج الكلام، وواسطة العقد.

- **الثاني:** القسم الخصوصيّ: وفيه توجّه توجّهاً أدبيّاً فكان أقرب إلى الذوق الفنيّ، إذ ربط تحليله الآيات القرآنيّة بعنصر الخيال، وعقد مبحثاً أسماه (حظّ السامع) قصد فيه مراعاة مقتضى الحال تحدّث فيه عن الأغراض التي تحقّقها الفنون

البلاغيّة لتثير انتباه السامع، مثل: الاستفهام، والحذف، والالتفات، والتمثيل، وتعرّض لمباحث بلاغيّة أخرى، مثل: المقابلة، والاستثناء، والمجاز، والكناية، والتشبيه، والتعريض(٧).

ثمّ ختم الكتاب بمباحث متفرّقة، مثل: صرف الكلام عن سنّته، والجملة المعترضة، ووجوه الخطأ في التمييز بين حسن الكلام، وروح البلاغة وسرّها، وكمال البلاغة والإعجاز، ومناط كلام العرب، وأخلاق العرب وقواهم العقليّة والكلاميّة، وصوت الخطب، ومذهب العرب في نقد الكلام، وباب في التمرين على النقد، وباب في نقد الكلام، والفواصل والقوافي.

وما نلحظه في محاولة التجديد هذه مجموعة ملاحظات، منها:

– إشارة المؤلّف المتكرّرة في كتابه إلى أثر المنطق الأرسطي في نشأة البلاغة، وأنّ سبب الجمود الذي أصابها البعد عن طريقة العرب، وقد نوافقه في بعض القول ولكنّنا لا نقطع به إذ إنّ الإلحاح الذي نراه لدى المؤلّف يذكّرنا بأصحاب المنهج التاريخي المستمدّ من الثقافة الغربيّة الذي ينظر إلى الثقافة الإسلاميّة وما نتج عنها من علوم ومنها البلاغة على أنّها امتداد للثقافة اليونانيّة، فلا يُرجع أصول البلاغة أو فروعها إلى حاجة ملحّة داخل هذه الثقافة، وهموم خاصّة أوجبتها وإنّما يرجع هذه الأصول والفروع إلى أصول يونانيّة(٨)، وقد يبدو لنا أنّ المؤلّف تبع هذه النظرة لا سيّما إن عرفنا من خلال مقدّمة كتابه أنّه عاش في افغانستان على الرغم من أصوله العربيّة وكان مهتمّاً بدراسة الفلسفة الحديثة والعلوم العصريّة الغربيّة فربّما انسحبت هذه الفكرة إلى كتابه من التراث اللغويّ الغربيّ.

– إنّ تقسيمه للبلاغة جديد في بابه إذ لم يؤثر عند القدماء في مؤلّفاتهم، وهو ليس متوافقاً مع توجّهاتهم في إيجاد رابط مشترك بين الظواهر البلاغيّة من حيث الغرض المتحقّق من: علم البيان، أو المعاني، أو البديع.

– إنّه أدخل الكثير من الأحكام النقديّة إلى البلاغة فخلط مباحثهما معاً.

– إطلاقه أحكاماً ذوقيّة في الحكم على النصوص البلاغيّة أو الحكم على البلاغيّين وقد يبدو هذا الأمر واضحاً في نقده عبد القاهر الجرجانيّ وأنّه لم

يتعامل في مؤلّفاته مع النصوص الأدبيّة وتحليلاته لها على أساس الذوق الفنيّ السليم(٩).

٢- محاولة بعث التراث من جديد:

ومن أوائل الداعين إلى بعث التراث الدكتور فتحي فريد في كتابه (مدخل إلى دراسة البلاغة)، والدعوة إلى تنقية البلاغة من كلّ ما يحول دون انطلاقها، أو يطبعها بالعقم، أو يسمها بالجمود، فالتجديد الحقيقي- من وجهة نظره- يتحقّق من خلال مجموعة من الخطوات، هي:

- بعث التراث البلاغيّ القديم، واستمداد المادّة العلميّة والأدبيّة للدرس البلاغيّ من هذا التراث(١٠).

- الاستعانة بالعلوم الأخرى التي لها تعلّق بالنصّ فيما يخصّ توضيح أسراره البيانيّة ولا سيّما علم النفس، الاستعانة التي تفيد في تذليل المفاهيم البلاغيّة وليست الاستعانة التي ينسى فيها دارس البلاغة مهمّته(١١).

- تطوير مقدّمة البلاغة، وتوسيع جوانبها ممّا يبيّن عن مفهوم البلاغة ويكشف عن عظيم أهميّتها بالنسبة للعلوم الأخرى(١٢).

- التجديد في طريقة عرض المفاهيم البلاغيّة، بعرضها عرضاً جذّاباً يجعلها قريبة من الأذهان، سهلة التناول، وهذا الأمر يتحقّق من خلال عدّة وسائل، منها: الاستعانة بالشواهد الماديّة لتوضيح الأمور المعنويّة، واختيار الطريقة الموضوعيّة في تدريس البلاغة، وإظهار كلّ ما يشتمل عليه النصّ من وجوه البلاغة وأسرارها(١٣).

- تجديد البلاغة بالبلاغة من خلال الوقوف على المقاييس البلاغيّة في كتب القدماء والابتعاد عن استحضار التجارب الخارجة عنه(١٤).

والملاحظ أنّ هذه الخطوات تحدّثت عن التجديد في الدرس البلاغيّ ليؤدّي وظيفته التربويّة التعليميّة التي خبرها المؤلّف بوصفه أستاذاً لتدريس البلاغة العربيّة، ومن هنا فإنّ رائد عمليّة التجديد هو المعلّم الخبير بتطبيق هذه الخطوات، أو الذي سيصبح مؤهلاً بعد قراءة كتاب المؤلّف، فالمعلّم الناجح هو الذي يقدّم درس البلاغة لطلابه بأسلوب يناسب روح

العصر، عماده في ذلك التعمّق في فهم التراث البلاغيّ المتقدّم، وتطبيق مقاييسه على الأساليب الأدبيّة الحديثة بأسلوب يتجافى عن التعقيد(١٥).

ومن المحاولات التي تدخل في هذا الباب محاولة الدكتور منير سلطان في كتابه (البديع، تأصيل وتجديد)، حاول فيه المؤلّف العودة إلى التراث البلاغيّ، واستخلاص وجهة نظر القدماء عن (فنّ البديع) خاصّة في رحلته التاريخيّة بين نموّ هذا الفنّ نابضاً بالحياة، ومن ثمّ انحداره إلى الحياة السطحيّة والجمود(١٦)، فجمع شذرات أقوال العلماء فيما يخصّ الفنون البديعيّة التي اشتركت في عامل (الإيقاع) فقط الأمر الذي لا يتوافر لبقيّة الفنون البلاغيّة من: التشبيه أو المجاز، أو الفصل والوصل، أو التقديم والتأخير أو غيرها من الفنون.

ولكي تكون هذه الفنون موصوفة بصفة البديع لا بدّ من أن تحقّق قضيّة الوفاء بالمعنى فهي ليست وجوهاً لتحسين المعنى فقط، وإنّما هي الكلام نفسه، والمعنى هنا لا يُقصد منه معاني الألفاظ المفردة، بل يعني الموضوع الذي يتحدّث فيه الفنّان، و(الوفاء به) يعني كيفيّة إظهاره وصياغته صياغة فنيّة شائقة (١٧).

بموجب هذين الشرطين قسّم المؤلّف كتابه على قسمين: القسم الأول يتناول مصطلحات الوفاء بالمعنى والإيقاع، وهي: السجع، والازدواج، والجناس، والمشاكلة.

والقسم الثاني يتناول مصطلحات الوفاء بالمعنى ومن ثمّ يأتي الإيقاع، وهي: الطباق، والمبالغة، والتعليل وطرافة التعليل، والتورية.

وتعدّ محاولة الدكتور منير سلطان محاولة جيّدة بالعودة إلى التراث، ومحاولة جمع الشذرات المتفرّقة للخروج بموضوعات متكاملة عن هذه الفنون البديعيّة وإيجاد رابط جامع بينها، ولكن يبقى رابط الإيقاع رابطاً محدوداً بحدود ضيّقة إذا ما طُبق على علم البديع خاصّة، وعلميّ البيان والمعاني عامّة، وتبدو لنا محاولة القدماء تقسيم علم البديع إلى محسّنات لفظيّة، وأخرى معنويّة أجدى في جمع متفرّقات هذا العلم.

وتدخل ضمن هذا النوع من المؤلّفات محاولة الدكتور أحمد مطلوب في كتابه (دراسات بلاغيّة ونقديّة) إذ دعا إلى إحياء التراث العربيّ بالعودة إلى التراث، فالبلاغة خدمت اللغة العربيّة خدمة عظيمة، وعملت على إظهار ما في القرآن من وجوه الجمال وبيان سرّ الإعجاز، وقد انحصرت خدمتها في أهداف ثلاث، هي:

– هدف دينيّ: معرفة إعجاز القرآن وبيان سرّ خلوده.

– هدف نقديّ: معرفة الكلام الجيّد من الردئ.

– هدف تعليميّ: الاستعانة بالبلاغة في إنشاء الأدب وشعره ونثره.

وهذه الغايات الثلاث لا تكاد تخلو منها أيّ مقدّمة من مقدّمات كتب البلاغة القديمة(١٨)، ولكنّها مع ذلك فقد تأثّرت بالفلسفة والمنطق والكلام؛ لذا فإنّه يدعو إلى جملة أمور لمحاولة بعث البلاغة من جديد، منها:

– إلغاء التقسيم الثلاثيّ للبلاغة وجعلها فنّاً واحداً.

– تجاوز البحث في الجملة أو الجملتين إلى البحث في النصّ بأكمله.

– تخليص البلاغة من المباحث الفلسفيّة والمنطقيّة.

– تقليل المصطلحات المستعملة والاكتفاء بأهمّها وأدلّها على الأساليب.

– تخيّر القطع الأدبيّة من القرآن والنصوص الأدبيّة المعبّرة وتحليلها تحليلاً أدبيّاً.

– الاستعانة بالدراسات النفسيّة ولكن ليس مع طغيانها على البلاغة(١٩).

ودعوة الدكتور أحمد مطلوب التي أردفها بالتطبيق في كتابه (البلاغة والتطبيق) تعدّ محاولة لا بأس بها ووجهة نظر يمكن الوقوف عندها، ولكن ما يؤخذ عليه أنّه وإن دعا في مقدّمة كتابه إلى العودة إلى التراث ولا سيّما التراث البلاغيّ إلا أنّه لم يحافظ على هذا التراث من خلال دعوته إلى إلغاء التقسيم الثلاثيّ، أو إلغاء المصطلحات، أو فرض الدراسات النفسيّة، فالمحافظة على التراث تعني الإبقاء عليه كما هو، والتعامل معه على أنّه حقيقة ثابتة الوجود لا يمكن تغييرها، بل يعني أيضاً

الدوران في فلك التراث من دون تغيير ملامحه، وهو أمر لم يتحقّق لدى المؤلّف.

٣- تيسير البلاغة:

وقد شكّلت هذه الدعوة رغبة ملحّة عند الكثيرين ممّن حاولوا تحقيق الهدف التعليميّ من البلاغة، كي تصبح علومها سهلة التناول والتطبيق من قبل دارسيها، وقد ألفت هذه الدعوة لدى الكثير من المؤلّفين، مثل دعوة: عبد العزيز البشريّ في كتابه (المختار) إذ دعا إلى تليين قواعد البلاغة ومقاييسها على الدارسين كي تصبح أشبه بالأسلوب النقديّ القائم على التفطّن والذوق، بحيث تتطوّر مع الأفهام والأذواق، فما نضجت موهبة إلا بطول التمرين وترديد النظر وتقليب الذهن في المأثور من روائع الأدب (٢٠)، والتركيز على وظيفة البلاغة الذوقيّة أمر نجده واضحاً تمام الوضوح عند أحمد حسن الزيّات في كتابه (دفاع عن البلاغة)، فالوظيفة الأولى للبلاغة هي الإقناع عن طريق التأثير، والإمتاع عن طريق التشويق؛ ولذلك كان اتّجاهها إلى تحريك النفس أكثر، وعنايتها بتجويد الأسلوب أشدّ(٢١)، ولكيّ تحقّق هذا الهدف لا بدّ من أن ترتبط بالعلم بمعناه الأعمّ أو بالمعرفة بمدلولها الأشمل، فالذوق ينبغي أن يستعين بالعقل والعاطفة كليهما في تكوين حكمه، هذا بمقتضى المنطق السليم، وتلك بمقتضى الشعور الكامل(٢٢)، أمّا كيف يتحقّق هذا الترابط فيتمّ بإعداد الآلة، وإدمان المزاولة، وطول المران(٢٣).

وما يميّز هذه المحاولات أنّها رغبة نابعة من النظر إلى علم البلاغة ذاته وليس من خارجه، وقد شمل هذا النوع من التجديد نوعاً من المؤلّفات حاولت إقصاء كلّ المباحث التي لا تتناسب مع التيسير والتسهيل على القارئ والمتعلّم، ولكنّها حافظت على الترتيب الإجماليّ لعلوم البلاغة ومباحثها، ومن هذه المحاولات محاولة علي الجارم ومصطفى أمين في كتابهما (البلاغة الواضحة) الذي يدخل في جملة الكتب المدرسيّة التي كانت تدعو إلى تيسير مباحث البلاغة وتسهيلها على المتعلّم.

يشير المؤلّفان في مقدّمة الكتاب إلى أنّ رغبتهما الأساسيّة من تأليف الكتاب هو تربية ملكة الذوق السليم والنقد الصحيح في ذهنيّة الطالب كي

يصبح قادراً على لمح محاسن العربيّة وإدراك أفانين القول وضروب التعبير، ويذكران أنّ الطريقة التي عرضاها في الكتاب إنّما هي طريقة ابتكراها لتحقيق هذا الغرض (٢٤)، وهو أمر يؤكّد ما ذكرناه سابقاً من أنّ محاولات التيسير البلاغيّ كانت نابعة من طبيعة العلم ذاته وليست مفروضة عليه من الخارج، فالبلاغة قبل كلّ شيء فنّ من الفنون يعتمد على صفاء الاستعداد الفطريّ ودقّة إدراك الجمال، وتبيّن الفروق الخفيّة بين أنواع الأساليب، وللمران يد في تكوين الذوق الفنّي وتنشيط المواهب (٢٥).

والمنهج الذي اعتمده المؤلّفان هو المنهج الأدبيّ القائم على توضيح معنى الفنّ البلاغيّ الذي يعرضانه على وفق تقسيمات القدماء، والاستدلال عليه بأمثلة قرآنيّة وأدبيّة بعيداً عن الأسلوب المنطقي والجدليّ الذي ألفه القدماء في مؤلّفاتهم، ثمّ وضع تمارين مختلفة لتعويد الطالب على التذوّق السليم للظواهر، والإجابة عن هذه التمارين لبيان مستوى الصواب والخطأ المتحقّق من خلال الدراسة.

والمحاولة جيّدة في وضعها منهجاً متكاملاً وموحّداً سارت عليه لخدمة الهدف التعليميّ الذي حدّدته أساساً، ولكنّها في سبيل خدمة هذا الهدف أغفلت الكثير من أسرار البلاغة اعتماداً على التركيز على تحليل النصوص تحليلاً أدبيّاً .

ويدخل في هذا النوع من المحاولات محاولة عبدة عبد العزيز قلقيلة في كتابه (البلاغة الاصطلاحيّة)، وتسمية الكتاب تشير إلى الهدف الذي كان يقصده من تأليف كتابه، فالبلاغة الاصطلاحيّة هي البلاغة الخالصة من شوائب العلوم الأخرى: كالأصول، والفقه، والمنطق والفلسفة، والنحو، والصرف، والعروض، والقافية، وعلم الكلام، وعلم اللغة، ولكلّ واحد من هذه العلوم مسائله ومشاكله ومجاله(٢٦)، فالمؤلّف لم يتهمّ إلا بالمباحث التي تتعلّق بالمعنى الاصطلاحيّ للظواهر من دون الاهتمام بالمعنى اللغويّ إلا بالمقدار الذي ينفع في توضيح المعنى الاصطلاحيّ.

أمّا المنهج الذي يعتمده فهو منهج القدماء في عرض موضوعاتهم وترتيبها، إذ حافظ على علم البلاغة بذاته من دون تغيير أو تبديل إلا أنّه حذف

كلّ ما يتعلّق بالمباحث المنطقيّة أو الجدليّة أو المباحث التي لا تحتاجها البلاغة ضمن موضوعاتها، فمنهجه منهج القدماء في عرض موضوعاتهم: كلّيّ وجزئيّ، كلّيّ لجعل العلوم أساس التقسيم، وجزئيّ من خلال عرض أجزاء كلّ علم، المكوّنة له (٢٧).

والملاحظ أنّ المؤلّف في منهجه حافظ على الهدف الذي نشأت من أجله البلاغة وهو خدمة قضيّة إعجاز النصّ القرآنيّ، محاولاً أن يجعل القارئ قادراً على تلمّس دقائق العربيّة وأسرارها، وإعداد الناقد البلاغيّ الذي يستطيع الحكم على صحّة أيّ نصّ، أو تكوين أيّ نصّ: شعريّ ونثريّ، وهذه المحاولة قريبة الشبه إلى حدّ كبير بسابقتها.

وقد نجد من أصحاب المحاولات التي سعت إلى التيسير مَنْ حاول دمج بعض مباحث البلاغة مع بعضها بعضاً، أو أضاف اليها، أو حذف منها، وكانت رغبته التيسير مع تحقيق التجديد.

ويمكن أن ندرج ضمن هذه المحاولات محاولة مصطفى الصاوي الجويني في كتابه (البلاغة العربيّة تأصيل وتجديد)، وفكرة الكتاب تقوم على أنّ مقاييس الجمال البلاغيّ، أو صور التعبير الأدبيّ إنّما هي مستمدّة من النصّ القرآنيّ، ومن روائع النصوص الأدبيّة (٢٨)، وبما أنّ البلاغة نشأت أصلاً لخدمة القرآن الكريم فلا شكّ في أنّ التراث البلاغيّ قد حوى الكثير من النظرات التي تحتاج إلى إعادة تأمّل وبحث، وهو ما ركّز عليه المؤلّف، فمحور كتابه يقوم على أمرين:

- **الأوّل: التأصيل:** أنّ يقدّم الأصول البلاغيّة لعلومها الثلاث: المعاني والبيان والبديع بعيداً عن الجانب الفلسفيّ الجامد منها، فالقدماء على الرغم من محاولتهم تقعيد البلاغة من خلال استعمال القواعد المنطقيّة إلا أنّهم أخرجوا النصّ القرآنيّ- الذي نشأت البلاغة من أجله- من دائرة التطبيق وطبّقوا هذه القواعد على النصوص الأدبيّة(٢٩)، فوقفوا بالدرس البلاغيّ عند حدود استيعاب المصطلح البلاغيّ بدلاً من التأكيد على قضيّة الذوق والإحساس الفنيّ بسبب تداخل الحجاج المنطقي مع تناثر ملاحظاتهم حول التحليل الجماليّ(٣٠)، فضلاً عن أنّ الانشغال بتطبيق

القاعدة جعلهم يركزون على الجملة أو الجملتين ويديرون ظهورهم للنصّ الأدبي (٣١).

– **الثاني: التجديد:** وقد شمل البحث في التراث البلاغيّ عن ملامح التجديد من إعادة النظر في تلك الأصول، والبحث عن مواطن جديدة للجمال على وفق مبادئ الدرس الحديث، فالتراث البلاغيّ حمل الكثير من عناصر الإبداع الفنيّ الأساسيّة، مثل: مادّة الأسلوب، وأنواع الموضوعات الأدبيّة التي يختارها الأديب، وربط المبدع بظروفه الذاتيّة والبيئيّة ووصله بالمتلقّي(٣٢)، ولكنّ القدماء لم يتوسّعوا في مجال تطبيق هذه العناصر أو تحليلها.

والحلول التي وضعها تدعو إلى تيسير البلاغة واستبعاد الجانب الفلسفي الجامد من البلاغة واستبداله بالملاحظ الفنيّة التي يمكن استخلاصها من التراث البلاغيّ واللغويّ، مثل:

١– **فيما يخصّ علم المعاني:** استخلاص بعض الأبواب من علم النحو وإدراجها في علم المعانيّ، وهي تلك الأبواب التي يمكن تجريدها تجريداً جماليّاً في مواطن الاستعمال الأدبيّ، مثل: التصغير، والتوكيد، والمدح والذمّ، والتعجّب، والعطف، واستعمال الاسم الموصول، واستعمال اسم الإشارة، وغيرها(٣٣).

٢– **فيما يخصّ علم البيان:** دراسة صور البيان من وجهة نظر نفسيّة وهي دراسة تعد بالإثمار– على حدّ قوله–لأنّها توصل إلى التحليل الجماليّ لروعة النصوص المستشهد بها(٣٤)، وهو أمر قصره القدماء على الاستعارة فقط فهي التي تحدث التأثير في النفس في حين أنّ تأثير التشبيه والكناية منطقيّ بحت (٣٥)، فضلاً عن جعلهم مقاييس الجمال تنحصر في اعتبارات بيئيّة، اجتماعيّة، ذوقيّة(٣٦).

٣– **فيما يخصّ علم البديع:** ينبغي أن يكون التركيز على الكلمة من حيث هي عنصر لغويّ مجاله الدرس اللغويّ بدلاً من الاهتمام بحسن اللفظة من حيث جرسها الصوتيّ، وحسن الكلمة يتحقّق من حيث قدرتها على أداء المعنى؛ فالضابط لحسن الكلمة هو حسّ الأذن للأصوات الذي يختلف بحسب الأذواق وبحسب اللغات، وضبط ذلك يكون بالحسّ الفنيّ الذي يزداد من خلال اتصال الكلمة بمعناها، فدرجة الحسن في المحسّنات منشأه الاتصال بالمعنى دائماً، فإذا فقد ذلك الاتصال

فسد(٣٧)، والقصد أن يكون للمعنى السيادة والأولويّة، وله السلطان المطبق في فرض ما توجبه الألوان النفسيّة من مختلف الصور والأساليب(٣٨).

وإدراجنا محاولة مصطفى الصاوي الجويني ضمن محاولات التيسير لأنّه دعا إلى اقتطاع أجزاء من البلاغة، وأضاف البدائل إليها، ودعوته إلى التجديد لم تأخذ إطاراً يتجاوز هذه الحدود.

المحور الثاني: المعاصرة:

المعاصرة لا تعني رفض التراث وإحداث القطيعة معه بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل معه إلى مستوى المعاصرة، واعتماد البحث عن مصداقيّة طروحاتها المستوحاة من الحداثة الأوربيّة داخل هذا التراث، واتخاذه أصلاً لهذه الطروحات من دون الاكتفاء بأخذ هذه الحداثات من الغرب وجعلها أصولاً بحدّ ذاتها ومن ثمّ تطبيقها على التراث ممّا يحدث قطيعة بين الطرفين لصعوبة التناغم والانسجام بينهما (٣٩)، فلا بدّ من إعادة قراءة التراث ومحاولة إيجاد نقاط للتلاقي يمكن الانطلاق منها إلى المعاصرة.

وقد اتخّذت محاولات دعاة التجديد الربط بين الأصالة والمعاصرة بعدين:

- **البعد الأوّل:** استثمار التجارب الغربيّة الحديثة وتوظيفها في خدمة البلاغة: وخير من يمثّل هذه الدعوة أمين الخوليّ في كتابيه: (فنّ القول)، و(مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب)، وبغضّ النظر عن الفترة الزمنيّة الفاصلة بين تاريخ نشر الكتابين(٤٠) إلا أنّهما عبّرا عن قضيّة واحدة وفكرة واحدة، ويبدو تأثّر الشيخ أمين الخولي واضحاً بالثقافة الغربيّة التي أتاحت له عمليّة المقارنة بين نوعين من البلاغة: القديمة الجامدة، والحديثة المنفتحة(٤١)، ولكنّه لا يرى ضرورة إقصاء التراث من عمليّة التجديد فهو صالح للنماء والتطوّر على وفق متطلّبات الحياة(٤٢)، ومن المقارنة بين البلاغتين حذف من البلاغة القديمة ما لا يتماشى مع البلاغة الجديدة ليتوصّل من خلال الدمج بين صالح البلاغتين- من وجهة نظره- إلى (فنّ القول)(٤٣).

يُظهر كتاب (فنّ القول) أنّ هناك أسباب دعت مؤلّفه إلى طرح فكرة التجديد، ومن هذه الأسباب:

١- إنّ البلاغة القديمة اشتملت في مضامينها على مباحث تتصل بالمنطق، من أمثلة الحديث عن الحدّ والموضوع، والمقولات، والملكات، والسلب والإيجاب، والعموم والخصوص وما إليها، وبالفلسفة، من أمثلة الكلام في الحسّ، والخيال، والوهم، والضوء، واللون وغير ذلك، وكلّ هذه الأمور تحوّل البلاغة إلى تأليف جامد يتوقّف عند الأمور الفلسفيّة لا الأمور الفنيّة(٤٤).

٢- إنّ البلاغة القديمة ركّزت على بحث الجملة والجمل من دون التوسّع إلى بحث المعاني الأدبيّة من الفنّ القوليّ (شعراً ونثراً) : مفردات، وجمل، وأساليب وهو ما ركّزت عليها البلاغة الحديثة.

٣- إنّ البلاغة القديمة ركّزت على اللفظ من دون المعنى، ومن هنا بحثوا في الحال أو المقام، ومقتضى الكلام(٤٥).

٤- إنّ الهدف المتوخّى من البلاغة القديمة هو الاحتراز من التعقيد المعنويّ، وعن الخطأ في تأدية المعنى المراد (٤٦).

والحلّ الذي يضعه الخوليّ لكلّ هذه المشكلات هو:

١- إبعاد الملاحظ والاعتبارات التي حدّدها القدماء في أساس بحثهم البلاغة، وإبطال غير الصحيح منها، من أمثلة: الحديث عن فصاحة الكلام وبلاغته فهو لا يدخل ضمن اعتبارات البلاغة، وحصر أبحاث علم المعاني بالخبر والإنشاء أمر ليس بذي قيمة لأنّه سيحصر البحث بالجملة أو الجملتين وأجزائها فقط، وضبط أبحاث علم البيان بالحقيقة والمجاز ملحظ لا قيمة له لأنّه لا يبحث في المؤثّرات في النفس الإنسانيّة، وإلغاء التقسيم الثلاثي للبلاغة لأنّ المحسّنات البلاغيّة ليست تابعة للمعاني أو البيان فضلاً عن أنّ متعلّقات هذه العلوم ليست في شيء من البحث العميق للمعاني في الأدب (٤٧).

٢- إزالة التداخل المضطرب بين البلاغة وغيرها من علوم الثقافة الإسلاميّة العربيّة تفكيراً

وتأليفاً(٤٨)؛ لخصوصيّة كلّ علم في بحث مضامينه، وما جرّه هذا التداخل من كثرة التقسيمات، ومن التزيّد والتضخّم في مباحث البلاغة (٤٩)، واضطراب مناهج البحث واختلاطها، ولا سيّما في ميدان البحوث الكلاميّة والفلسفيّة.

٣- عدم الوقوف عند الغاية الدينيّة التي كانت الهدف من نشوء البلاغة، لأنّها تحدّ الدرس البلاغيّ، وتكفّ من نشاطه، والبديل هو ربط فنّ القول بالحياة الإنسانيّة من نواحيها المختلفة، والإفادة من المذاهب الفنيّة المحدثة في سائر الفنون ممّا يكمّل الشخصيّة الأدبيّة العصريّة، ويجعلها جديرة بأن ترضي ذوق العصر في أدبها، وتترجم عنه في نقدها (٥٠).

٤- توسيع آفاق الدرس البلاغيّ فلا يشتمل على الجملة فقط أساساً له وإنّما يتجاوز ذلك إلى الفقرة الأدبيّة بأكملها، ثمّ إلى القطعة الكاملة من الشعر أو النثر(٥١).

٥- التركيز على دراسة المعاني الأدبيّة في: حقيقتها، وميزتها، وفي إيجادها وترتيبها على طريقة بحث المحدثين وهو ما لم تعن به المدرسة الكلاميّة بشيء(٥٢).

٦- بحث الفنون الأدبيّة بحثاً موضوعيّاً يبيّن خصائص هذه الفنون واحداً بعد الآخر، ومقوّماتها التي يكمل بها جمالها الفنّيّ في ألفاظها وصياغتها، ومعانيها وأغراضها، مستعينين بما خلّفته المدرسة الأدبيّة لنا في هذا الميدان (٥٣).

٧- التزام منهج أدبيّ يقوم على الذوق(٥٤) فيكشف عن النوازع النفسيّة التي أوصلت إلى فنّ من القول من دون آخر، والمنهج الأدبيّ يقوم على تقدير هذا الأمر والعناية به، ويقيم الوزن لكلّ الأحوال الوجدانيّة المنتجة للنصّ(٥٥).

ولكن الناظر وراء الأسباب الداعيّة إلى محاولة أمين الخوليّ يرى أنّ الكتاب لم يكن يقصد البلاغة بحدّ ذاتها وإنّما قصد بعداً أكبر من ذلك، بعداً سياسيّاً واجتماعيّاً وقوميّاً (٥٦)، فاللغة وسيلة من وسائل الجهاد ضدّ الاستعمار، وباباً لا يمكن أن نضمن نجاحه إلا إذا ضمنّا المحافظة عليها من شتّى أنواع المؤثّرات الخارجيّة، والبلاغة – عند أمين الخوليّ بوصفه داعية من دعاة النهضة القوميّة في

مصر– ليست احترازاً عن الخطأ، ولا تجنّباً للتعقيد، ولا إدراكاً لوجوه التحسين، وإنّما هي: ((**مادّة من موادّ النهوض الاجتماعيّ، تتّصل بمشاعر الأمّة، وترضي كرامتها الشخصيّة، وتساير حاجتها الفنيّة المتجدّدة، فتكون اللغة في مصر مثلاً، لغة الحياة في ألوانها المختلفة،...فلا يعيش الناس بلغة، ويتعلّمون لغة أخرى،...ولا تكون اللغة سبباً في فرض نظام من الطبقات على الأمّة، يتّسع به البعد بين خاصّة الأمّة وعامّتهم، في اللغة المتفاهم بها**))(٥٧).

ولكي يصل الخوليّ إلى تحقيق هدفه لا بدّ من أن يجعل البلاغة صالحة للتناغم مع الحياة الاجتماعيّة، وصالحة للتغيير الذي قد يمسّ أسسها نافياً ومثبّتاً فيها، ولا سيّما فيما يخصّ البلاغة المفلسفة، فتتصل بالحياة من خلال شخص المعلّم(٥٨) الذي يمثّل الأداة الرئيسة لتحقيق التجديد لأنّه من خاصّة الأمّة، إذ يسعى إلى إيصال عامّتها إلى مستواه اللغويّ باعتماد تحقيق الجانب التطبيقيّ السليم للبلاغة، فإذا عرفنا ذلك كلّه علمنا أنّ اختيار تسمية الكتاب بـ (فنّ القول) إختيار مقصود منه هذا الهدف.

ولو أردنا تقييم كتابيّ أمين الخوليّ فإنّنا نرى جملة من الأمور، منها:

١– إنّ كتاب (فنّ القول) اتّسم بالإسهاب والإطالة بشهادة المؤلّف (٥٩)، فعرض موضوعات كثيرة معروفة للقارئ.

٢– ركّز الخوليّ على البلاغة التعليميّة بوصفها أصلاً للبلاغة عموماً، فالهدف هو تعليم اللغة، والحقّ إنّ البلاغة التعليميّة تمثّل جزءاً من علم البلاغة.

٣– سلب الخوليّ من البلاغة القضايا التي كانت سبباً في نشأتها وتطوّرها، من أمثلة: قضيّة الإعجاز القرآنيّ.

٤– لم تكن البلاغة مقصودة بذاتها وإنّما المراد من تسهيلها تيسير تعلّم اللغة الفصحى، وبذلك يكون الخوليّ قد حرّف الهدف الذي نشأت البلاغة لأجله إلى هدف آخر.

٥- رفض الخولي أن يكون (فنّ القول) ممثلاً للإعجاز البيانيّ في القرآن من وجه، ولكنّه جعله ممثلاً للإعجاز النفسيّ من وجه آخر (٦٠).

وعلى الرغم من ذلك فإنّ الخولي دعا إلى خطّة جديدة لدرس البلاغة تقوم على دراسة البلاغة دراسة أسلوبيّة تسندها دراسة الفنون وعلم النفس والدراسات الجماليّة.

وتدخل في هذا الباب محاولة أحمد الشايب في كتابه (الأسلوب)، إذ يقترب كثيراً من دعوة أمين الخوليّ إلى دراسة البلاغة دراسة أسلوبيّة توظّف فنون علم النفس والجمال(٦١) في خدمته ولكنّه يختلف معه في آليّة المعالجة، فهو عرض للبلاغة القديمة في ثوب عصريّ يستفيد من الفكر الغربيّ.

نظر المؤلّف إلى الدراسات النظريّة القديمة للبلاغة فوجد أنّ البلاغة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوعات النقد فامتزجت مباحثهما معاً، وفي ضوء هذا الامتزاج تشعّبت البلاغة إلى علومها الثلاث: البيان والمعاني والبديع، ففي علم المعاني تدرس الجملة، وما في حكم الجملة، وفي علم البيان تدرس الصور البلاغيّة بألوانها المختلفة من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية، وفي البديع يأتي التحسين المعنويّ واللفظيّ مكمّلاً للأداء الفنيّ في هذه العلوم.

ثمّ نظر المؤلّف إلى البلاغة في ضوء مفهوم الأسلوب، فقسّم كتابه على قسمين: الأسلوب، والفنون الأدبيّة، تحدّث في القسم الأول عن القواعد التي تمكّن من التعبير البليغ المؤثّر، وتدرس الكلمة والصورة والجملة والعبارة، والأسلوب من حيث عناصره، وصفاته، ومقوّماته، وموسيقاه(٦٢)، وعلى وفق هذه الموضوعات أدخل البلاغة العربيّة بأكملها ضمن موضوعات هذا القسم، فعلم المعاني يدخل كلّه ضمن بحث الجملة، وعلم البيان وأغلب البديع يدخل في باب الصورة.

وفي الفنون الأدبيّة درس مادّة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتنسيقها، وما يلائم كلّ فنّ من الفنون الأدبيّة وقواعد هذه الفنون، مثل: القصّة والمقالة، والوصف، والرسالة، والمناظرة، والتاريخ(٦٣)، والملاحظ أنّ دراسته في هذا القسم كانت شكليّة تضمّنت المستحدث من أنواع الفنون المعاصرة.

فهو يحاول أن يربط بين البلاغة والأسلوبيّة من حيث إنّ البلاغة تميل في جملتها إلى الناحية الشكليّة، في حين أنّ الأسلوبيّة تعنى كثيراً بالعبارات والأساليب، ولا تعرض لقيمة الفكرة بل لمدى ملاءمتها للمعنى، وفي ضوء إظهار هذه الفكرة ناقش أولئك الذين يرون أنّ الأسلوب يتألّف من مجرّد عناصر لفظيّة تتابع مع بعضها في كلمات أو جمل أو عبارات، وأرجع هذا التتابع إلى نظام آخر معنويّ انتظم وتآلف في نفس الكاتب أو المتكلّم فشكّل بذلك أسلوباً معنويّاً قبل أن ينتظم في تأليف لفظيّ (٦٤).

ومحاولة أحمد الشايب لربط مباحث البلاغة بالأسلوب فتحت آفاقاً للباحثين في هذا الموضوع فيما بعد، إذ حاول أن يعرض تعريفات مختلفة ربطت بين البلاغة القديمة والأسلوب المعاصر، وأن يعرض – في ضوء مفهوماتها– مجموعة من عناصر الأسلوب في ضوء النظرة البلاغيّة القديمة، فالأسلوب هو ((**الصورة اللفظيّة التي يعبّر بها عن المعاني أو نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار وعرض الخيال، أو العبارات اللفظيّة المنسّقة لأداء المعاني**))(٦٥)، وأن يجعله مجموعة من الخطوات التعليميّة التي ينبغي أن تتبّع لكي يستطيع المنشئ انتاج الأساليب الفنيّة المختلفة، ومن هذه الخطوات:

- **الخطوة الاولى:** اختيار الفنّ الأدبيّ الذي يعتمد عليه لأداء ما في نفسه من المعاني، فقد يكون مقالة، أو قصيدة، أو رسالة، أو قصّة، أو كتاب، أو محاضرة(٦٦).
- **الخطوة الثانية:** اختيار المعاني أو الأفكار التي يريد التعبير عنها، ثمّ يرتّبها في ألفاظ معبّرة بشكل واضح ومؤثّر في الوقت نفسه فيكون قد تكوّن له الأسلوب الأدبيّ (٦٧).

والذي نلحظه من هذا الكتاب أنّ المؤلّف حاول أن يؤسّس لبلاغة قائمة على دراسة أسلوبيّة حديثة، وجهده يشكر في هذا الجانب ولكنّه – بوصفه مؤسّساً– قد أغفل بعض الأمور الضروريّة لاستكمال هذه الدراسة، مثل: طبيعة المنشئ، وظروفه الاجتماعيّة والنفسيّة، وطبيعة المتلقّي (مراعاة الحال)، ثمّ إنّه لم يخرج عن سلوك القدماء وتفاعلهم مع النصوص من اعتماد الأحكام الذوقيّة في بيان جماليّة النصوص أو عدمه وكأنّه على

وفق القواعد التي وضعها لم يستطع أن يمارس صلاحيّته في تحديد قاعدة تستوعب جماليّة هذه النصوص فكيف الأمر بالمنشئ أو المتلقيّ.

ومحاولة الدكتور رجاء عيد في كتابه (فلسفة البلاغة بين التقنيّة والتطوّر) تدخل في هذا الباب أيضاً، وفكرته تدور حول قضيّة تطوّر الذوق الفنيّ والحكم الأدبيّ الذي يتبدّل من عصر إلى آخر ومن فرد إلى آخر؛ لذا فإنّ البلاغة تحتاج إلى نظرة جديدة تستدعي الكفّ عن ترديد كلّ ما قيل فيها من أحكام، وضرورة التنقيب حول ما يتسق وطبيعة الذوق المعاصر(٦٨)، أمّا الأسباب التي دفعته إلى خوض هذه التجربة فكثيرة، منها:

١- إنّ البلاغة خدمت قضيّة الإعجاز القرآنيّ، ومن خلال هذا الهدف تعدّدت المفهومات البلاغيّة، وتشابكت الأصول مع الفروع.

٢- إنّ المتكلّمين أسهموا في صياغة قواعد البلاغة فأدخلوا القواعد المنطقيّة والجدليّة إلى مباحثها، وحصروا موضوعاتها في تقنين صارم.

٣- غموض المفاهيم البلاغيّة عند القدماء في جمل مختصرة لا تبيّن عن وضوح أو نظرة شاملة للأشياء.

٤- التركيز على الجملة أو الجملتين بوصفها المحور الذي تدور حوله موضوعات البلاغة.

٥- تكرار الأمثلة وتردّدها من بلاغيّ إلى آخر ومن عصر إلى آخر وكأنّ الأداء الفنّيّ قد أقفر إلا من هذه الأمثلة(٦٩).

هذه الأسباب وغيرها كانت دافع المؤلّف إلى محاولة البحث في التراث وانتقاء ما هو مفيد للحياة الأدبيّة، متوجّهاً بالنقد إلى ما يجب طرحه حتّى يكون البحث البلاغيّ صورة متكاملة تتناول العمل الفنيّ تناولاً كاملاً(٧٠) منطلقاً من حدود الجملة إلى الدراسة الأسلوبيّة المتكاملة، فالأسلوب سمة شخصيّة لصاحب النصّ الأدبيّ، ولكلّ منهج لغويّ، وهو يختلف بحسب الموقف، والسياق، والعاطفة، ولا جدال أنّ لكلّ عصر سماته الأسلوبيّة الخاصّة به تبعاً للنمط الفكريّ، والجوّ الثقافيّ، والظروف الاجتماعيّة، والطبائع النفسيّة، لا بل قد يكون للبيئة أثرها في تمايز الأداء الفنيّ(٧١).

في ضوء هذا الفهم للأسلوب حاول المؤلّف أن يبحث في التراث البلاغيّ لأقوال القدماء وتحليلاتهم التي تخدم فكرة اختلاف أسلوب المبدع بحسب الظروف المحيطة به، وإذا تمّ ذلك فإنّه ينظر إلى العمل الفنيّ في شكله ومضمونه ولا يدور حول البيت أو الجملة (٧٢).

من منطلق مفهوم الأسلوب تحدّث المؤلّف عن اللفظة ثمّ الجملة أو العبارة، وقد تباينت الموضوعات التي تعرّض لها في ضوء هذا التقسيم، ففي حديثه عن اللفظة نقل آراء القدماء في الشرائط التي وضعوها لفصاحة الكلمة من عدم التنافر، أو عدم الخروج على القياس اللغويّ والصرفيّ، أو أن تكون غير خارجة على المألوف، أو قبيحة، ورأى أنّ هذا تكلّف لا يوصل إلى نتيجة فالذي يحكم حسن اللفظة أو قبحها إنّما هو الموقف والسياق والبيئة اللغويّة التي تتعايش فيها الألفاظ(٧٣)، ثمّ إنّ الذوق الفنيّ هو الفيصل في الحكم على هذه الأمور.

ثمّ عرض للأسلوب الفنيّ وعلاقته بعلوم البلاغة الثلاث، ففي علم المعاني يرى أنّ مباحث هذا العلم تبحث في بناء الجملة على أساس تكوينها النحويّ، تعلّق اسم باسم، أو اسم بفعل، أو حرف بهما، وهذه المباحث لصيقة بعلم النحو حيث إنّها بحث في الجملة وما تتركب منه من مسند ومسند إليه، وما يلحق بهما من مكمّلات، ولكن استقامة العبارة نحويّاً أو صوغها على نحو خاصّ يعطيها خصائص فنيّة في هذا النسق(٧٤)، فضلاً عن المباحث المنطقيّة التي اشتمل عليها من تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، أو الحديث عن صدق الخبر أو كذبه، فكلّ هذه المسائل لا تقدّم شيئاً في فهم الأسلوب الفنيّ(٧٥).

أمّا في ميدان علم البيان الذي يمثّل وسيلة التصوير الفنيّ التي تعارف البلاغيّون على فنونه من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، فلا بدّ من إعادة النظر إلى الصورة الشعريّة المقامة بها وإقامة تصوّر جديد يتجاوز الفواصل المنطقيّة التي أقامها البلاغيّون بين هذه الفنون، فالخيال لدى الشاعر والفنان عامّة هو الذي يتجاوز به إلى ما وراء المسلّمات اللغويّة الممنطقة، ويتجاوز حدود العقلانيّة التي قد يزعم البعض أنّها ستظهر بالتحليل

البسيط والساذج لمكوّنات التشبيه والاستعارة والكناية، والخيال الذي يقصده المؤلّف ليس البديل المساوي للعقل ولكنّه يتجاوزه ويحلّ محلّه في إقامة عقلانيّة خياليّة تتجاوز حدود الواقع المادّي الذي يخيّل لنا- خطأ- أنّه قائم خلف الصورة المجازيّة، وعلى وفق ذلك لم تعد الصورة البيانيّة مجرّد زينة لفظيّة أو حلية فنيّة وإنّما نشاط فكريّ ينظّم التجربة الفنيّة بوساطة خيال دؤوب يعمل على إعادة تشكيل جزئيّات الواقع لتذوب معاً مكوّنة رؤية فنيّة شاملة للأشياء(٧٦).

وفي ميدان علم البديع فإنّ صور البديع في نظر المؤلّف لا يمكن فصلها عن النسق اللغويّ العامّ، فهي جزء من بنية التركيب الفنّيّ جميعه، وتقسيم البلاغيّين لما عرف بالمحسّنات إلى لفظيّة ومعنويّة تقسيم مردود، فالقدرات الفنيّة أوسع من أن تحدّ برسوم أو تعقيدات منطقيّة(٧٧).

والذي نلحظه من هذه المحاولة أنّ المؤلّف قد استوعب التراث البلاغيّ استيعاباً شاملاً بحيث كان يستدلّ لكلّ قضيّة يذكرها بآراء البلاغيّين المؤيّدة أو المخالفة ويناقشهم في تحليلاتهم للنصوص، ويضع البديل الملائم لما يطرحه، فضلاً عن أنّه استوحى مفاهيم الأسلوب المعاصرة من خلال التراث البلاغيّ نفسه ولم يحاول إقسار الظواهر الحديثة لمجرّد استيراد التجربة وبذلك حافظت محاولته على أصالتها وجدّتها.

ومن الدراسات الجادّة في ربط البلاغة بالأسلوبيّة دراسة الدكتور محمد عبد المطلب في كتابه (البلاغة والأسلوبيّة) فقد استكمل فيها المؤلّف كلّ أدواته الثقافيّة في التعامل مع المخزون التراثيّ والمستحدث الوافد لا سيّما بعد أن استكملت النظريّة الأسلوبيّة أصولها وجوانب البحث فيها عند علماء الغرب، والمؤلّف يوظّف كتابه لهدف إحياء التراث البلاغيّ وربطه بالحداثة والمعاصرة، محاولاً جعل التراث هو الأصل في وضع القواعد المعاصرة لا العكس.

يعرض المؤلّف للسبب الذي يدعوه إلى التأليف في هذا الجانب فيبيّن أنّ الحديث عن مفهوم الأسلوب في الدراسة القديمة ذا أهميّة خاصّة باعتباره مدخلاً للكشف عن القيم التعبيريّة في الصياغة، خاصّة عند من تعرّضوا للفظة (أسلوب)

بشكل مباشر(٧٨)، وأدركوا معناها ومفهومها بشكل يتطابق مع أحدث الدراسات الأسلوبيّة في العصر الحديث، وقد حاول المؤلّف من خلال تتبع هذه اللفظة ودلالات معانيها عند البلاغيّين القدماء التوسّع في الحدود المكانيّة ليشمل مع علماء المشرق العربيّ علماء المغرب العربيّ أيضاً ليوصلنا إلى أنّ معرفة المفهوم مقترناً باللفظة الدالّة لم يكن إبداعاً مفرداً خاصّاً بجهة من دون جهة وإنّما كان مفهوماً عامّاً على مستوى الثقافة العربيّة، وأنّ توظيف هذه الآراء جميعاً لوضع نظريّة متكاملة تعتمد النظريّة الأسلوبيّة يمكن أن يخدم النقد الجديد فيجعله قادراً على التعامل مع النصّ الأدبيّ من خلال فهم إمكاناته وطاقاته وأبعاده التراثيّة من دون محاولة تطبيق مفاهيم غريبة عنه(٧٩).

وهو يحاول أن يؤكّد تكامل جوانب النظريّة الأسلوبيّة عند القدماء تنظيراً وتطبيقاً، فمن حيث التنظير هم ربطوا بين اللغة والكلام، وعدّوا الألفاظ رموزاً للمعاني، وأنّ الأفكار لا تتعلّق باللفظة المفردة فقط وإنّما فيما بين هذه المعاني من علاقات، وأنّ النحو بإمكاناته الواسعة هو الذي يقدّم للمبدع كلّ الاحتمالات الممكنة في تكوين الجملة، ونجد الكثير من التوجيهات التي تأخذ بنظر الاعتبار الإمكانات الاستبداليّة، والقدرة التوزيعيّة، وانتهاك اللغة، وانحرافها عن النمط المألوف، وإخضاع المجاز لسيطرة النحو وعلاقاته التركيبيّة في هذا التراث وهي مفاهيم أساسيّة في الأسلوبيّة.

أمّا في الجانب التطبيقيّ فقد قدّم المؤلّف الكثير من النماذج التطبيقيّة التي حفظها التراث لنا مع تحليلاتها وأثرها في الدلالة ممّا يكشف عن قدرة القدماء وتقدّمهم في ميدان الدراسات اللغويّة.

ويؤكّد لنا أنّ كثيراً من مباحث علم المعاني ارتبطت بالأسلوب وتركيبه في المعاني والبيان والبديع، ففي المعاني نجد دراسة وافية للمقام والحال وارتباطهما بالصياغة الأدبيّة، ونجد فيه توافقاً مع دروس علم اللغة في مباحث علم الدلالة، وفي البديع نجد مستويات صوتيّة ودلاليّة لها شأنها في الصياغة الأدبيّة.

وتمثّل فكرة (العدول) عن الأسلوب العادي محوراً رئيساً في البحث البلاغيّ في مستواه الإخباريّ والإبداعيّ، وهو بذلك يمثّل إضاءة أسلوبيّة في

مباحث: التعريف والتنكير، والحذف والذكر، والتقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، والالتفات، والفصل والوصل، وحروف المعانيّ.

ويمثّل (التكرار) إضاءة أسلوبيّة واضحة في مباحث علم البديع من خلال: الطباق، والتعديد، وتنسيق الصفات، والسجع، والالتزام، والترصيع، وغيرها.

وتشكّل الملاحظ السياقيّة عند البلاغيّين القدماء خطوة متقدّمة في ميدان الدراسات الأسلوبيّة من حيث تعاملها مع البعدين: الزمانيّ (المقام) والمكانيّ (الحال) للصياغة وإن كان الأمر يحتاج إلى بعض التوقّف لجعل الدراسات السياقيّة شاملة للنصّ الأدبيّ من جهة، وربط السياقات مع بعضها بعضاً من جهة أخرى.

وللدكتور محمد عبد المطلب محاولة أخرى في استثمار التجارب الغربيّة وتوظيفها في خدمة البلاغة تمثّلت في كتابه (البلاغة العربيّة، قراءة أخرى)، وهي محاولة يشار إليها بالبنان، اعتمد المؤلّف فيها استنباط أصول المنهج التحويليّ من التراث البلاغيّ، مقارناً بين رؤى البلاغيّين القدماء والرؤى المعاصرة في هذا المجال، فمحاولته – مثلما يقول– هي إعادة اكتشاف الدروب القديمة التي هجرها الباحثون بدعوى التحجّر والجمود(٨٠). ويمكن أن نعدّ الكتاب إلى جانب ذلك دفاعاً عن التراث البلاغيّ الذي حاول بعض المؤلّفين التوجّه إليه بالهجوم ونسبة القصور إليه، فهو يردّ على جملة من هذه الاتّهامات، ومنها:

١– إنّ البلاغة قصرت عن الإحاطة بالقيم الجماليّة للنصوص، وقد ردّ المؤلّف بأنّ القصور الذي لحق بالبلاغة لم يكن بسببها وإنّما بسبب القائمين على تعليم قواعدها، إذ أخلوها من وظائفها الجماليّة الصحيحة فتحوّلت إلى مجرّد قواعد جافّة، ولم يحاولوا الكشف عن خلفيّتها اللغويّة التي تعطيها شرعيّة وظيفتها الإبداعيّة (٨١).

٢– إنّ البلاغة تخلّت عن فطريّتها وانطباعيّتها لتدخل دائرة العلميّة من خلال اعتمادها على القواعد والمقاييس العلميّة، فتحوّلها إلى العلميّة المنهجيّة فيه قضاء على معظم جماليّاتها، وقد ردّ المؤلّف هذا الاتّهام بأنّه لا بدّ لكلّ علم من منهجيّة تضبط حركته لا أن يكون بحوثاً مبعثرة، لا تلتزم بخطّة،

فلا يمكن أن نعيب البلاغة لأنّها شكّلت علماً له أصوله وقواعده، بل الأوفق أن يكون هذا الاتّهام صفة مدح لها لا ذمّ(٨٢).

٣- إنّ مباحث البلاغة اختلطت بعلم المنطق، وقد ردّ المؤلّف هذا الاتّهام بأنّ البلاغة تتسق مع علم المنطق؛ لأنّها تستهدف مع الجمال إنتاج (الصحّة) و(السلامة)، ومن ثمّ امتدّت مباحثها من منطقة الصوت المفرد، إلى الكلمة المفردة، إلى التركيب المفيد، إلى التراكيب المتّصلة أو المنفصلة، بمعنى آخر أنّ البلاغة كانت دراسة واعية لأدوات التعبير اللغويّة وكيفيّة إنتاجها للمعنى، مع الاحتفاظ لكلّ أداة بموقعها في محاور البلاغة الثلاث: المعاني والبيان والبديع(٨٣)، فهذه القواعد لم تأت من فراغ وإنّما كانت ناتجاً للمتابعة الوصفيّة لمجموعة النصوص الأدبيّة ومن ثمّ الوصول إلى القاعدة.

٤- إنّ البلاغة القديمة غير صالحة للعصر الحديث ولا بدّ من استحداث بلاغة جديدة والانقطاع عن القديم، وقد ردّ المؤلّف على هذه الدعوات بأنّ البلاغة تشارك التوجّهات المعاصرة: الشكليّة، والبنيويّة، والسيميوطيقيّة في اهتمامها بالأدوات الشكليّة اللغويّة، يضاف إلى ذلك اهتمامها بالكيفيّة التي يمكن لهذه الأدوات أن تؤدي بها مهمّتها داخل الخطاب الأدبيّ، بمعنى آخر أنّ البلاغة وجدت فرصتها في التعامل مع جانبيّ الاستهلاك والإنتاج(٨٤)، فهي صالحة للتعامل مع المناهج اللغويّة الحديثة في ضوء مصطلحاتها القديمة، وليس من المنصف لها إخضاعها لمسميّات طارئة توهم بالحداثة، مثل: الانحراف والانتهاك والانزياح، أو إدخالها إلى دائرة الإحصاء العدديّ للظواهر، فالقدماء تنبّهوا إلى هذه الأمور وإن كانت إشاراتهم خاطفة، ويبقى تميّزهم واضحاً في الميدان التطبيقي الذي افتقرت إليه دعوات التجديد الحديثة ممّن اتهمت مباحث البلاغة بالقصور(٨٥).

٥- إنّ تقسيم البلاغة إلى ثلاثة علوم: البيان والمعاني وهي رئيسة، ومن ثم البديع وهو فرع تابع لهما ليس منصفاً؛ لأنّه لا يعطي البناء الشكليّ والمضمونيّ للظواهر البلاغيّة حقّها، وقد ردّ المؤلّف بأنّه لا فرق بين توظيف القدماء بنى علم البيان أو المعاني أو البديع فهي جميعاً أدوات تعبيريّة لازمة

في الحكم على النصّ الأدبيّ، وقد وظّفوها توظيفاً جماليّاً لافتاً(٨٦).

٦- إنّ البلاغة وقفت عند حدود الجملة، ويجيب المؤلّف بأنّ هذا الأمر يرجع إلى ظروف العصر، وسيطرة الملاحظ الجزئيّة في النظر إلى الواقع، ثمّ انعكاسها على البحث اللغويّ عموماً وليس البلاغة فقط(٨٧).

وقد كانت للمؤلّف نظرة شموليّة في محاولات التجديد التي تعرّضت للبلاغة وهي صائبة في مضمونها لخّص هذه النظرة بقوله: ((**واعتقد أنّنا مطالبون بإعادة الشرعيّة للدرس البلاغيّ، وقد حاول ذلك باحثون سابقون في مقولاتهم عن (تجديد البلاغة العربيّة) أمثال الشيخ أمين الخولي، وأحمد الشايب، وأحمد حسن الزيّات، ومصطفى صادق الرافعيّ، وكانت محاولاتهم الأولى بداية الربط الحقيقيّ بين الدرس البلاغيّ القديم والدرس الأسلوبي الحديث، ثمّ تتابعت الجهود الحذرة أحياناً، والمندفعة أحياناً أخرى، وسبب هذا الاندفاع يعود- فيما نرى- إلى الاتصال الأخير بالوافد الغربيّ في مجال الأسلوبيّات والبنيويّات، وإلى الأهمية المتزايدة للبحث اللسانيّ، ونظريّة التواصل والسيميائيّات، وإن ظلّت هناك مفارقة بين البحث البلاغيّ والبحث الأسلوبي في مناطق معيّنة، كمنطقة التقويم التي ارتكزت عليها البلاغة بحدّة، في حين تغاضت عنها الدراسات الحداثيّة**))(٨٨).

من هنا فإنّ محاولة المؤلّف تقتضي قراءة البلاغة القديمة قراءة جديدة واستيعابها لإعادة إنتاجها ثانياً في ضوء صياغة حداثيّة جديدة، تتوافق مع المقولات التراثيّة شكلاً، وتعبّر عن مضمونها تعبيراً صحيحاً، ولا شكّ أنّ هذا الاستيعاب يجب أن يشمل المراحل التطوريّة التي مرّت بها البلاغة: مرحلة التذوّق الفطريّ، ومرحلة التجميع التأليفيّ، ثمّ مرحلة التنظيم السكاكيّة(٨٩). هذا محور عمل الدكتور عبد المطلب وقد نجح في ذلك.

وإعتماد المنهج التحويليّ في تفسير البلاغة هو مقصد له أسبابه عند المؤلّف، فالمنهج التحويلي أصبح- من وجهة نظره- صاحب السيادة في البحث اللغويّ عموماً، وهو الذي عقدّه إلى مباحث النقد البنيويّ والأسلوبيّ؛ لذا فإنّ اعتماد المنهج

التحويليّ أمر مبرّر لسيادته على المناهج اللغويّة، فضلاً عن أنّ المؤلّف لا يستبعد أن تكون أصول المنهج التحويليّ عربيّة، ومن الأسباب التي دفعته إلى هذا الاعتقاد أنّ صاحب المنهج (جومسكي) كان مهتمّاً بالتراث العربيّ والعبريّ ولا سيّما النحو، وقد كتب مجموعة من الأبحاث المتعلّقة بالموضوع فمن الممكن أن تكون أصول هذا المنهج عربيّة وهو أمر حاول إثباته في كتابه من خلال العودة إلى التراث لإثبات هذا الاعتقاد.

الأمر الثالث أنّ هناك الكثير من الجهود في ميدان البحث اللغوي ولا سيّما في ميدان النحو والبلاغة حاولت الإفادة من جهود جومسكي في نظريّته التحويليّة وطبّقتها في البحث البلاغيّ لتكشف عن تحولات البنية البلاغيّة ولكنّها بقت في إطار محدود؛ لذا فإنّ الأمر يحتاج إلى محاولة جادّة للوصول إلى الخلفيّة الفكريّة التي وجّهت البلاغيّين لرصد علومها الثلاث: البيان، والمعاني، والبديع (٩٠)، ومحاولة المؤلّف تندرج ضمن المحاولات الجادّة.

ومن هذا المبدأ ينطلق المؤلّف في الكشف عن تحوّلات البنى التركيبيّة عند البلاغيّين وتوجيهاتهم للأغراض اعتماداً على هذه البنى من خلال الكشف عن البنى العميقة التي تختفي وراء البنى السطحيّة، فهو يرى أنّ كثيراً من البلاغيّين والنقّاد القدامى قد أقاموا علاقة بين الدالّ من حيث كونه صوتاً، وبين المدلول، وأدركوا مدى التوافق المتحقّق بين الطرفين، واستغلّوا الخواصّ المتعدّدة للدوالّ على انفرادها، أو داخل التركيب، سواء كان ذلك في المستوى الإخباريّ أم المستوى الأدبيّ، بل تجاوزوا – في حركتهم التحليليّة– الدالّ إلى مفرداته الصوتيّة والمحاسن التي تعود إليها(٩١)، وهذا الكلام يكشف عن وعي المؤلّف بما يحويه التراث من إشارات تجاوزت الربط بين البنى السطحيّة والعميقة إلى التعامل مع العناصر غير اللغويّة التي تتدخل في إنتاج الدلالة، التي قد يعود بعضها إلى الخواصّ الذاتيّة في الأداء، وقد يعود بعضها الآخر إلى طرفيّ الإتّصال، المبدع والمتلقّيّ اعتماداً على مصطلحيّ (الحال والمقام)(٩٢).

وقد تابع المؤلّف تحوّلات البنية للوصول إلى الهيكل الأسلوبيّ من خلال عمليّة (الضمّ) فضلاً عن (عمليّة التعليق) حيث تؤدّي العلاقات النحويّة دوراً بالغاً إخباريّاً وإبداعيّاً، فمن التعليق يكتسب التحوّل خواصّه الإبداعيّة فتتحقّق الإفادة، مضافاً إليها كمّاً متوازياً من الملاحظ الشكليّة التي أفرزتها البلاغة، ليكون التضافر بين النحو والبلاغة قمّة الأدبيّة(٩٣).

ويستشرف المؤلّف الملاحظ التحويليّة في كلّ ميادين البلاغة في علومها الثلاث: البيان والمعاني والبديع، ففي البيان مثلاً ينقل لنا آراء البلاغيّين القدماء في التعامل مع فنون علم البيان القائمة على الصياغة الأدبيّة التي تتجاوز دائرة المواضعة، فتحوّلات الأبنية في علم البيان لا تقتصر على التشكيل السطحيّ القائم على مفهوم الوضوح والخفاء وإنّما التحوّل الحقيقيّ هو الذي يتمّ في البنية العميقة(٩٤). فالنظر البلاغيّ للبيان قام على نوع من التصوّر الكليّ الذي يجمع بين مفرداته في عمليّة تحوليّة قائمة على بنية أساس تتحوّل إلى مجموعة من البنى بينها قدر كبير من التداخل ذي مستويات مختلفة (٩٥)، ويبحث المؤلّف عن هذه التحوّلات في بنية التشبيه، والاستعارة، والكناية.

وفي علم المعانيّ فإنّ التحوّل يتحقّق من خلال ثنائيّات متعدّدة، منها: ثنائيّة الكلام العادي والكلام الأدبيّ، أو المستوى المثالي والمنحرف، وثنائيّة المتكلّم والمتلقّيّ، وثنائيّة الحال ومقتضى الحال، وثنائيّة مقتضى الظاهر وغير مقتضى الظاهر، وثنائيّة الفائدة ولازم الفائدة، وصولاً إلى تحقّق الإفادة الجماليّة التي تبلغ درجة الإحسان من المتلقّيّ(٩٦).

ومن أمثلة التحوّلات التي يعرض لها: تحوّلات المسند إليه (الحذف، والذكر، والتعريف، والتنكير، والتقديم، والتنكير)، متعلّقات الفعل: (ذكر الفعل، وحذف المفعول، وتقديم المفعول)، القصر، الإنشاء: (التمني، والاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء)، الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب.

وفي علم البديع يتحقّق البعد التحويليّ من خلال الاعتماد على ثنائيّات تقابليّة تسير مسار التحولات الدلاليّة التي تبدأ فاعليّتها من منطقة دلالية إلى منطقة دلالية أخرى تتصل بها نوعا من الاتصال، قد يكون تخالفاً بين الدالين على مستوى السطح

والعمق، وقد يكون توافقاً بين الدالين على مستوى السطح والعمق، وقد يكون توافقاً بين الدالين على مستوى السطح وتخالفا على مستوى العمق، أو بالعكس(٩٧)، هذه العلاقات جميعاً تتمثّل في البعد التكراريّ للإيقاع في البنية العميقة، ومن أنماط العلاقات التي عرضها بين الدوالّ: التخالف بين الدالين على مستوى السطح والعمق ويتحقّق في: (التطابق، والتقابل، والرجوع)، التوافق بين الدالين على مستوى السطح والعمق ويتحقّق في: (تشابه الأطراف، والترديد، وردّ العجز على الصدر، والمجاورة)، التوافق السطحيّ والتخالف في العمق ويتحقّق في: (الجناس، والمشاكلة، وأسلوب الحكيم، والعكس والتبديل، والتعديد، وتنسيق الصفات). التخالف السطحي والتوافق في العمق ويتحقّق في: (مراعاة النظير، والإرصاد، والتذييل، وتأكيد المدح بما يشبه الذمّ، وتأكيد الذم بما يشبه المدح، والالتفات).

– **البعد الثاني:** إقسار التجارب الغربيّة واقحام تطبيقاتها على البلاغة:

ومن المحاولات التي حاولت استيراد التجارب الغربيّة، والانبهار بها لدرجة اقسارها على اللغة العربيّة أوّلاً والبلاغة ثانياً محاولة (سلامة موسى) في كتابه (البلاغة العصريّة واللغة العربيّة)، والكتاب وإن حمل لفظة (البلاغة) في عنوانه إلا أنّه لم يتضمّن محاولة تجديديّة فيما يخصّ كتابه بذاته وإنّما كانت البلاغة آخر اهتماماته إذ كان الغرض الأساس هو الحديث عن اللغة العربيّة الفصحى ليس من المنطلق الذي تحدّث عنه الشيخ أمين الخوليّ وإنّما من منطلق رفض استعمال اللغة العربيّة الفصحى عموماً واستبدالها باللغة اللاتينيّة أو الانكليزيّة لغة العصر والعلم– مثلما يسمّيها– وهي دعوة لم تكن جديدة في بابها، ويبدو التأثّر الغربيّ واضحاً في توجّهاته، والاستدلالات التي يعرضها ويستشهد لها من كتب المؤلّفين هي في جملتها استدلالات غربيّة، وقد انعكس تأثّره الواضح بالأفكار الغربيّة في موقفه من اللغة العربيّة عموماً والبلاغة خصوصاً، فهو يرى أنّ اللغة العربيّة إنّما هي امتداد للغة اليونانيّة وفلسفتها، والدليل هو اشتمالها على أكثر من ثلاثة آلاف كلمة رومانيّة وأغريقيّة وفارسيّة (٩٨)، لا بل إنّه ينسب أوّل

محاولة للتيسير إلى جنكيز خان المغولي الذي أصدر أمراً برفع المصطلحات الفخمة من المكاتبات عندما احتلّ الأقطار العربيّة(٩٩)، فضلاً عن ذلك فهو يرى أنّ الدعوة إلى اللغة العربيّة الفصحى هي دعوة سلفيّة ارتبطت بالمجتمع الزراعيّ البدائيّ المتخلّف، وأنّ غاية اللغة هي الفهم وهو أمر غير متحقّق في العصر الحاضر لأنّ اللغة العربيّة الفصحى غير مفهومة من قبل الكثيرين فالأفضل والأجدى أن يتعلّموا اللغة الشائعة في عصرهم لغة العلم والعصر الحاضر.

ومن موقفه من اللغة عموماً انطلق إلى الحديث عن البلاغة وقد حدّدها بنوعين هما: بلاغة قديمة، وبلاغة جديدة، البلاغة القديمة اشتملت على مجموعة من المشكلات التي سبّبت ضرراً كبيراً للبلاغة، من هذه الأمور:

١- إنّ البلاغة القديمة ارتبطت بالانفعال والعاطفة(١٠٠) وهذا الأمر سبّب ضرراً عظيماً للبلاغة لأنّها لا تقوم على قواعد منطقيّة يمكن الاحتكام إليها في الحكم على بلاغة النصوص.

٢- إنّ البلاغة القديمة ليست مثاليّة للتعايش مع الوضع المعاصر وإنّنا لن نستفيد منها إلا في مجال التوجيه الاجتماعيّ في الأمّة(١٠١).

٣- إنّ الإساءة لحقت بالبلاغة عندما استقرّ تدريسها على مبادئ اللغة العاطفيّة في المجاز والاستعارة والتشبيه كي يصل المتعلّمون إلى التعبير الفنّيّ أو الرفاهية الذهنيّة بدلاً من مبادئ البلاغة العقليّة بقواعد المنطق، هذه البلاغة العاطفيّة حملت المعلّمين على الإكبار من شأن الاقتباس والجمل المختارة بدلاً من الاختراع والتطوير(١٠٢)، فضلاً عمّا شاع بين المتعلّمين من أسلوب المحاكاة لأساليب القدماء.

أمّا المعالجة التي وضعها المؤلّف لهذه الأضرار- مثلما يسميها- فهي:

١- إنّ البديل الصحيح لمعالجة ارتباط البلاغة بالانفعال والعاطفيّة هو أن نجعل قواعد المنطق تقوم مقام قواعد البلاغة القديمة، فتكون غاية البلاغة مخاطبة العقل بدلاً من مخاطبة العواطف(١٠٣)، ودقّة التعبير بدلاً من تزويق التعبير(١٠٤).

٢- أن نقاطع الاقتباس الذي شاع في أساليب التعليم، وأن نستغني عن الأساليب المجازيّة ما استطعنا ذلك.

ويبدو تحامل المؤلّف على اللغة العربيّة واضحاً فعلى الرغم من أنّه يشير في بداية مؤلّفه إلى أنّه سيشخّص المشكلات ويعالجها – مثلما لاحظنا- إلا أنّه يعود بعد ذلك ليقول إنّ فنّ البلاغة يجب أن يكون في خدمة الحياة العصريّة؛ لذا لا بدّ من أن يتغيّر كي يخدمها(١٠٥)، والتغيّر الذي ينشده هو في تغيّر اللغة بمجملها إلى اللغة اللاتينيّة فهي وثبة إلى النور مثلما يقول(١٠٦)، لأنّ لغتنا العربيّة من ناحية العلوم ميتة ولذلك فنحن لا نعيش المعيشة العلميّة، ولا يتحرّك مجتمعنا التحرّك العلميّ، وأدبنا يعدّ أدباً ميّتاً لأنّه ليس أدب الشعب، إذ يكتب بلغة لا يفهمها الملايين(١٠٧)، وبذلك فإنّ ما يحدّده من مشكلات أو معالجات إنّما هي مجرّد واجهة تغطي الهدف الأساس من كتابه، وهو التقليل من شأن اللغة العربيّة الفصحى والعلوم التي خدمتها ومنها البلاغة، ورفضه لكلّ ما يرتبط بها.

ويدخل في هذا الميدان محاولة الدكتور جميل عبد المجيد في كتابه (البلاغة العربيّة واللسانيّات النصيّة)، إذ تدخل هذه المحاولة ضمن محاولات التجديد في الدرس البلاغي ولكنّها تختصّ بالدرس البديعيّ، إذ يوظّف ما وصلت إليه الدراسات النصيّة اللغويّة (١٠٨) لخدمة هذا الدرس، وقد حاول الربط بين ما وصلت إليه الدراسات القديمة في تحليلها فنون هذا الدرس وما وصلت إليه الدراسات النصيّة من إقامة العلاقات التوزيعيّة بين الجمل، وأخذ الموقف الاجتماعي بنظر الاعتبار عند تحليل النصوص.

أمّا الأسباب التي دفعت المؤلّف إلى تأليف كتابه فهي سيطرة الغاية التعليميّة على الدرس البلاغيّ عامّة وعند البديعيّين خاصّة، وتأثّرهم بالمنطق ممّا أدّى ذلك إلى تقعيد البلاغة وإقامتها على أساس الشاهد والجملة والمثال (١٠٩).

يحاول المؤلّف معالجة البديع على وفق اللسانيّات النصيّة للظواهر اللغويّة بالنظر في أقوال البلاغيّين وتحليلاتهم، فيخضع هذا العلم بكل فنونه وتوجّهات التحسين الحاصلة فيه إلى تقسيمات

الدراسات النصيّة القائمة على التحليل الدلاليّ للنصوص، لا بل إنّه يفرض عليها التقسيم ذاته، فيقسّمها على أساس ظاهرة التتابع والاستمراريّة المتحقّقة من خلال التكرار على أساس معيارين: الأوّل وهو ما يسمّى بمعيار (السبك) وهو نوعان: السبك المعجميّ، والسبك النحويّ، والثاني يسمّى بـ(الحبك)، وعلى أساسها يقسّم الظواهر البديعيّة إلى ظواهر متحقّقة على وفق:

أ- السبك المعجميّ، ويشتمل على أربعة أنماط، هي:

١- العنصر المعجميّ: إعادة العنصر المعجميّ لفظاً ومعنى (التكرار اللفظيّ).

٢- الترادف: تكرار المعنى من دون اللفظ (التكرار المعنويّ).

٣- الاسم الشامل: وهو ما يحتوي مفهوم دلالة لفظة كليّاً.

٤- الكلمات العامّة: وهي ما تدخل ضمنه دلالة اللفظة .

ويذكر المؤلّف أنّ البلاغيين القدماء كشفوا عن نمطين هما الأوّل والثاني، وأشاروا إلى النمط الثالث ولكنّهم لم يتوسّعوا فيه (١١٠)، ومن الفنون البديعيّة التي حقّقت (السبك المعجميّ) عند القدماء: الترديد، والتعطّف، وردّ العجز على الصدر، وتشابه الأطراف، والاشتقاق.

أمّا المصاحبة المعجميّة فتتحقّق من خلال مجموعة من العلاقات الثنائيّة: التباين: متضادين/ متخالفين/ متعاكسين، الدخول في سلسلة مرتّبة: الكلّ للجزء/ الجزء للكلّ/ الاندراج في صنف عامّ.

وبالمقارنة بين المصاحبة المعجميّة والتراث البلاغيّ وجد الباحث أنّ هناك مجموعة من الفنون حقّقت هذه الدلالة، مثل: المطابقة، ومراعاة النظير، والتوشيح، والارصاد، واللفّ والنشر، والاستخدام، والتورية المرشّحة.

أمّا السبك النحويّ فيتحقّق من خلال مستويّين: مستوى التركيب النحويّ، والمستوى الصوتيّ. والسبك النحويّ يتحقّق من خلال البديع المعنويّ: المقابلة، والمزاوجة، والعكس والتبديل، والتقسيم، والجمع مع التفريق، والجمع مع التقسيم. وعلى

المستوى الصوتيّ: الجناس باستثناء المماثل، والتعطّف في بعض الأحيان، والسجع المطرف، والتصريع، ولزوم ما لا يلزم.

والمعيار الثاني: وهو معيار (الحبك) الذي يعني الاستمراريّة المتحقّقة في النصّ، ويعتمد على انجازات علم النفس المعرفيّ والمنطق، ويتجلّى هذا المعيار في مجموعة من المفاهيم والعلاقات الرابطة بينها، منها:

١- علاقات الربط:

أ- علاقات إضافيّة: التكرار المعنويّ، والجمع، والمقابلة.

ب- علاقات ثنائيّة: (الايهام) في تجاهل العارف، والتقابل، والعكس والتبديل، والرجوع، القول بالموجب، وتأكيد المح بما يشبه الذمّ، وتأكيد الذمّ بما يشبه المدح.

و(المقارنة) في: التفريق، والتفريع، وجمع المؤتلف والمختلف.

٢- علاقات التبعيّة:

أ- علاقات مؤهّلة: (التعميم) في : التفسير، التقسيم، الجمع، اللفّ والنشر.

ب- علاقات منطقيّة: المذهب الكلاميّ، والمزاوجة.

والملاحظ أنّ هناك الكثير من الفنون التي لم تندرج ضمن هذه التقسيمات اعتماداً على ما يراه المؤلّف، وكأنّه يأخذ مشروعيّة تحديد الفنّ البديعيّ ضمن التقسيم من خلال إشارات القدماء في تحليلاتهم فيقسرها على قواعد التحليلات النصيّة ومقاييسها متناسياً أنّ لكل علم أسباب نشوء وتطوّر وارتقاء وصولاً إلى الاستكمال وهذه الأمور ما بين العلمين متناقضة تماماً إلا أنّ الجامع بينهما هو تعاملهما مع اللغة التي هي أصلاً مختلفة ما بين الحالتين، والذي نراه أنّه لم يكن موفّقاً في اختيار هذا المنهج في تطبيقه على البديع فكأنّه أقصى علميّ البلاغة الآخرين: البيان والبديع لأنّ مجال التطبيق – من وجهة نظرنا يكاد يكون معدوماً- واستقلّ بالبديع الذي قد تتحقّق بعض الجوانب

التطبيقيّة فيه من خلال التكرار الإيقاعيّ ولكنّه لا يشمل كلّ فنونه عند التطبيق.

وفي ختام الكتاب فإنّ المؤلّف يطرح هذا السؤال: ((**هل ستؤكّد الدراسات المقبلة- خاصّة التطبيقيّة- دور البديع في السبك والحبك؟**))(١١١) ونجيبه نحن بأنّ البديع لا يحتاج إلى إجابة من هذا النوع لأنّ فعاليّته في ميدان البلاغة لا تحتاج إلى دليل نستند عليه من مناهج مطبّقة على ميادين لغويّة لا تتطابق مع خصوصيّة البلاغة العربيّة أو مجالات عملها أو تطبيقها.

وهناك محاولة أخرى تتفق مع المنظور العامّ لتوظيف التجارب الغربيّة ولكنّها تختلف مع سابقاتها من حيث المنهج المعتمد للتطبيق، هذه المحاولة مثّلها محمد كريم الكوّاز في كتابه (البلاغة والنقد، المصطلح والنشأة والتجديد)، فقد اعتمد المنهج التداوليّ لتجديد البلاغة.

يرى المؤلّف أنّ المقولات القديمة عقيمة أمام الإبداع العربيّ المعاصر، وذلك لأنّنا لا نزال حبيسي تصورات القرون السابقة، ومن ثمّ يجدر بنا أن نفتح الأبواب لنحدث التحديث المطلوب، فنبقي ما نراه صالحاً للعيش، ونترك ما عفا عليه الزمن(١١٢)، فكان أن فتح الباب للتحديث، وكان المنهج التداوليّ، فالتجديد الذي يدعو له – في رأيه- لا يعني ترميم الماضي وإنّما إقامة نظام جديد شامل على أسس منهجيّة تتفاعل مع المستحدثات العلميّة التي أنتجها العصر(١١٣).

والأسباب التي دفعت المؤلّف إلى محاولة التجديد هذه:

١- إنّ البلاغة القديمة حصرت نفسها في مجال الجملة فانكمشت على نفسها، وأصبحت بالية المقولات.

٢- انتهت البلاغة القديمة إلى دراسة الأدب، وبقت في حدود الأدبيّة بشكلها التقليديّ القديم، تاركة مجال الكلام المتداول(١١٤).

حاول المؤلّف اقسار المنهج التداوليّ وتقسيماته على علم البلاغة والدافع لهذا الاقسار أنّ البلاغة نشأت خطابيّة كلاميّة، والبلاغة الخطابيّة تمثّل عنصراً مهمّاً في الإقناع، وهي موضع الاهتمام ضمن هذا المنهج، فقسّم مباحث البلاغة القديمة على وفق المقدّمات اللغويّة للمفهوم التداوليّ، فعرض لموضوعات تتصل بهذه المقدّمات، مثل:

البلاغة والاتصال، نظريّة الأفعال الكلاميّة التي نقض من خلالها تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء بوصفه تقسيماً فلسفيّاً(١١٥)، ثمّ عرض لأنواع الأفعال الكلاميّة في ضوء البلاغة فقسّمها على ثلاثة أنواع:

– فعل القول أو فعل الكلام: وهو إنجاز فعل التلفّظ بأصوات على صورة معلومة، وهي تنتظم في الكلام بحسب قواعد اللغة، الألفاظ تندرج في عبارة، فإذا استعملت العبارات بحسب مرجع ما فإنّها تؤدّي دلالة خاصّة، وهنا يظهر الفعل الدلاليّ.

– الفعل في أثناء القول أو قوّة فعل الكلام: ويحدث هذا الفعل عند النطق بالعبارة، فالمتكلّم لا يتكلّم فقط وإنّما يخبر أو يحذّر أو ينصح أو ينهي، أي أنّ هذا القول يشتمل على قوّة أو قيمة داخليّة.

– الفعل بالقول أو لازم فعل الكلام: ويحدث عند إثارة مشاعر المتلقّيّ، أو أفكاره، أو أفعاله كالإقناع أو الإبعاد أو إثارة الفزع وغيرها، وهذه الأنواع لا تأتي بالضرورة متتابعة، وإنّما هي أوجه مختلفة لفعل تعبيريّ واحد(١١٦).

والمعايير التي تحدّ هذه الأفعال الداخلة في القول هي: غرض الفعل، والمطابقة بين الكلمات والعالم، والحالة النفسيّة المعبّر عنها، والعزم على عرض الغرض الداخل في القول، ومقام المتكلّم والمتلقّيّ، والعلاقة بين أجزاء الكلام، والاختلاف في محتوى القضيّة، والاختلاف بين هذه الأفعال.

ثمّ يتحدّث عن عناصر التوصيل في ضوء المنهج التداوليّ، وهي: المرسل، والمرسل إليه، والقناة الموصلة للرسالة، والشفرة المستعملة في الاتصال، والسياق أو المرجع(١١٧)، ثمّ يوضّح هذه العناصر ويستدلّ عليها بالأمثلة.

وما نراه أنّ محاولة التجديد هذه لم تؤت ثمارها وأنّها فشلت في استقطاب التراث البلاغيّ والإفادة منه، إذ استوردت التجربة الغربيّة بمفاهيمها وتحليلاتها بل حتّى بأمثلتها وأجبرت البلاغة العربيّة بتراثها على الخضوع لها، ثمّ إنّ الدراسة كانت نظريّة بحدّ ذاتها ولم تتعمّق في بيان المفاهيم أو تطبيقاتها.

والذي نراه بعد جملة المحاولات التي عرضناه سابقاً أنّ هذه المحاولات ارتبطت فيما بينها بروابط

مشتركة، ودعت إلى إيجاد حلول لمشكلات أحسّت بها جميعاً ويبقى لنا الحكم على فاعليّة هذه المحاولات في ضوء ما حقّقته من توظيف للحلول المطروحة في ميدان التطبيق الفعليّ على التراث البلاغيّ، وقد عنّت لنا مجموعة من الملاحظات عنها، منها:

١- إنّ أغلب هذه المحاولات ركّزت على قصور البلاغة وضعفها عن الإحاطة بمتطلّبات العصر، والحقّ أنّ هذا القصور لا يعود إليها بوصفها علماً أو فنّاً وإنّما يعود إلى مستعمليها فالبلاغة لم تتوان عن الارتفاع بأذواق الناس في العصور السابقة فما الذي أوصلها إلى هذا القصور سوى سوء التعامل مع آليّاتها، وقصور ثقافة الأفراد قياساً إلى ثقافة البلاغيّين القدماء.

٢- بعض هذه المحاولات اعتمدت التجديد في جزئيّات البلاغة لا كلّها وذلك يظهر في الدعوات التي دعت إلى تجديد البديع فقط أو البيان فقط فهي لم تشكّل تجارب متكاملة كليّة وشاملة.

٣- كان الدافع في بعض هذه المحاولات مجرّد اقسار التجارب اللغويّة الغربيّة الحديثة على تجارب (بلاغيّة) تختلف عن هذه التجارب بحيثيّاتها وخصوصيّاتها، وفي التراث تعامل القدماء مع كلّ ما هو مستحدث من الألفاظ على أساس (المعرّب) و(الدخيل)، ولكنّنا في محاولات التجديد البلاغيّة لا نرى هذا التعامل فقد غاب عن البعض مفهوم إخضاع الحداثة لسلطة التراث وجعلها تسير في مساره لا العكس.

٤- محاولات التجديد في عمومها كانت محاولات فرديّة تعتمد بالدرجة الأساس على مستوى ثقافة المؤلّف ودرجة اتّصاله بالثقافة الغربيّة وما عدا ذلك فلا يشكّل تيار التجديد تيّاراً موحّداً؛ لذا فإنّ بعض هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح لأنّها غابت عن التطبيق الشموليّ لقواعد البلاغة جميعاً.

٥- غياب التطبيق في كثير من هذه المحاولات، واعتمادها على الجانب النظريّ فقط وذلك يعود إلى صعوبة فرض التطبيقات الملائمة لتجارب البلاغة وخصوصيّاتها في التعامل مع النصوص الذوقيّة: القرآنيّة والأدبيّة، وحتّى لو اشتملت هذه الدراسات على تطبيق فإنّها تكون انتقائيّة في اختيار الأمثلة

التي تخدم مفاهيمها وتترك ما عدا ذلك وإن كان قد بلغ درجة عالية من الصياغة والتأثير.

وما نراه أنّنا لسنا بحاجة إلى التجديد في علم البلاغة، أي التجديد الذي يعني إقصاء التراث أو تغييره كليّاً أو جزئيّاً ليتلاءم مع أذواق المستمعين في بيئة معيّنة، وإنّما نحن بحاجة إلى إعادة النظر في كيفيّة التعليم، ومناهجه المعتمدة، فالقدماء لم يكونوا يحتاجون إلى كدّ فكر أو شحذ قوّة لمعرفة المراد من النصوص بسبب الثقافة الموسوعيّة التي تزوّدوا بها وبما أنّ غرض البلاغة غرض دينيّ في أساسه لذا فإنّ الخطأ – إذا وقع– لا يغتفر ولا يمكن نسيانه، فكان العلماء مزوّدين بثقافة منطقيّة يدركون من خلالها المراد من المباحث الكلاميّة المبثوثة في البلاغة، وثقافة تفسيريّة تعين على تحديد المقصود من دلالات الآيات الكريمة، وثقافة لغويّة: صوت، وصرف، ونحو تعين على التوقّف عند احتمالات المعنى، وكلّ هذه الأوجه من المعرفة غير متحقّقة في شخص الإنسان المعاصر الذي قد لا يصل إلى استيعاب جزء قليل من هذه العلوم فكيف بها كلّها، والحلّ السليم هو محاولة إعادة تثقيف الإنسان المعاصر، وتزويده بالأدوات التي تعينه على الوقوف من النصّ الأدبيّ وقفة جادّة، وتحمّله مسؤولية القصور الذي يعود إليه بذاته وليس إلى قواعد البلاغة أو مقاييسها، وهذا الأمر هو الذي أوقف محاولات التجديد عند حدود التجربة الشخصيّة لصاحب التجربة من دون أن يكتب لها النجاح من خلال تعميمها على كلّ المؤلّفات البلاغيّة.

ثمّ إنّ الانبهار – في بعض الأحيان– بالتجارب الغربيّة وقف حائلاً دون السير بالبلاغة نحو التطوير الذاتي الذي ينطلق من العلم نفسه وبما يتلاءم مع ظروف الإنسان العربيّ وقوميّته ومعتقداته فأضاف إليها جموداً آخر بسبب سوء معاملتها من قبل أبنائها.

هوامش البحث

١) ظ: التراث والحداثة، دراسات ومناقشات: د. محمد عابد الجابري: ١٥١.
٢) ظ: البيان القرآنيّ: ٤٢- ٥١.
٣) ظ: المصدر السابق: ٨١، ٨٢.
٤) تسمية (بلاغة العجم) أو (بلاغة العرب) عرفت عند القدماء، إذ استعملها أبو أحمد العسكريّ في عنوان رسالته(رسالة التفضيل بين بلاغتيّ العرب والعجم)، واستعملها السيوطيّ في كتابه: (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: ١/ ١٩٠).
٥) جمهرة البلاغة: ٤.
٦) ظ: المصدر السابق: ٤-٥.
٧) ظ: المصدر السابق: ٦٢ وما بعدها.
٨) تنظر الفكرة في : التراث والحداثة، دراسات ومناقشات: ٢٩.
٩) ظ: جمهرة البلاغة: ٣١.
١٠) ظ: المدخل إلى دراسة البلاغة: ٢٢.
١١) ظ: المصدر السابق: ٢٣.
١٢) ظ: المصدر السابق نفسه.
١٣) ظ: المصدر السابق: ٢٣- ٢٧.
١٤) ظ: المصدر السابق: ٢٧.
١٥) ظ: المصدر السابق: ٢٨.
١٦) ظ: البديع تأصيل وتجديد: ٢٠.
١٧) ظ: المصدر السابق: ٢٣.
١٨) ظ: دراسات بلاغيّة ونقديّة: ٩.
١٩) ظ: المصدر السابق: ٣٤، ٣٥.
٢٠) ظ: المختار: ٢/ ٢٩- ٣٠.
٢١) ظ: دفاع عن البلاغة: ٢٥.
٢٢) ظ: المصدر السابق: ٣٢، ٤٥.
٢٣) ظ: المصدر السابق: ١١.
٢٤) ظ: مقدّمة كتاب البلاغة الواضحة.
٢٥) ظ: المصدر السابق: ٨.
٢٦) ظ: البلاغة الاصطلاحيّة: ١٠.
٢٧) ظ: المصدر السابق: ١١.

٢٨) ظ: البلاغة العربية، تأصيل وتجديد: ٥.

٢٩) ظ: المصدر السابق: ٢١٩.

٣٠) ظ: المصدر السابق: ٧٦، ٧٨.

٣١) ظ: المصدر السابق: ٦.

٣٢) ظ: : المصدر السابق: ١٢٧.

٣٣) ظ: المصدر السابق: ٦٤- ٦٧.

٣٤) ظ: المصدر السابق: ٢١٩.

٣٥) ظ: المصدر السابق: ١٣٠.

٣٦) ظ: المصدر السابق: ١٢٩.

٣٧) ظ: المصدر السابق: ١٧٩، ١٨٠.

٣٨) ظ: المصدر السابق: ١٧٩.

٣٩) ظ: التراث والحداثة: ١٥، ١٦.

٤٠) نشر الكتاب الأوّل في عام ١٩٤٧م، والثاني في عام ١٩٦١م.

٤١) ظ: فنّ القول: ٢١، ٢٢، ٢٣.

٤٢) ظ: المصدر السابق: ٢٢.

٤٣) ظ: المصدر السابق: ٢٥، ٢٢٧.

٤٤) ظ: المصدر السابق: ٧٣.

٤٥) ظ: المصدر السابق: ٧٨- ٨٠، ٩٧.

٤٦) ظ: المصدر السابق: ٨٢.

٤٧) ظ: فنّ القول: ٢٣٦، ٢٣٨، ومناهج تجديد: ١٨٣، ٢٦٢، ٢٦٣.

٤٨) ظ: فنّ القول: ٢٤٥، ومناهج تجديد: ١٠٢.

٤٩) ظ: فن القول: ٢٤٥، ٢٤٦، ومناهج تجديد: ١٢٥- ١٢٧، ١٤٤- ١٥٩.

٥٠) ظ: فن القول: ٢٦٩، ومناهج تجديد: ١٢٤، ١٢٥، ١٦٨، ١٦٩، ١٨٥.

٥١) ظ: فن القول: ٢٣٩، ومناهج تجديد: ١٧١، ٢٦٦.

٥٢) ظ: فنّ القول: ٢٤٠.

٥٣) ظ: فنّ القول: ٢٤١، ومناهج تجديد: ١٩١.

٥٤) ظ: فن القول: ٢٥٠، ومناهج تجديد: ٩٤.

٥٥) ظ: فن القول: ٢٥٩، ومناهج تجديد: ١٨٢- ١٨٣، ١٩٢، ١٩٣.

٥٦) ظ: فنّ القول: ٣٥.

٥٧) ظ: فنّ القول:٦٣، ٦٤، ومناهج تجديد: ٢٦٤.

٥٨) ظ: فنّ القول: ٦٤، ٦٨، ٦٩، ومناهج تجديد: ١٩٥.

٥٩) ظ: فن القول: ١٩١.
٦٠) ظ: مناهج تجديد: ٢٠٥ وما بعدها.
٦١) ظ: الأسلوب: ١٥، ٤٥٢، ٤٥٦.
٦٢) ظ: المصدر السابق: ٣٧.
٦٣) ظ: المصدر السابق: ٣٨.
٦٤) ظ: المصدر السابق: ٤٠.
٦٥) المصدر السابق: ٤٩.
٦٦) ظ: المصدر السابق: ٥٠.
٦٧) ظ: المصدر السابق نفسه.
٦٨) ظ: فلسفة البلاغة: ٧.
٦٩) ظ: المصدر السابق: ٨.
٧٠) ظ: المصدر السابق: ٤٣.
٧١) ظ: المصدر السابق:١٨.
٧٢) ظ: المصدر السابق: ٢٣.
٧٣) ظ: المصدر السابق: ٤٤.
٧٤) ظ: المصدر السابق: ٦٤.
٧٥) ظ: المصدر السابق: ٦٥، ٦٦، ٧١.
٧٦) ظ: المصدر السابق: ٢٣٧، ٣٩٥.
٧٧) ظ: المصدر السابق: ٤٦٧، ٤٩٨.
٧٨) ظ: البلاغة والأسلوبيّة: ١.
٧٩) ظ: المصدر السابق: ٧.
٨٠) ظ: البلاغة العربيّة، قراءة أخرى: ٧.
٨١) ظ: المصدر السابق: ١.
٨٢) ظ: المصدر السابق: ٢.
٨٣) ظ: المصدر السابق: ٤.
٨٤) ظ: المصدر السابق: ٨.
٨٥) ظ: المصدر السابق: ٩.
٨٦) ظ: البلاغة العربيّة، قراءة أخرى: ١٨.
٨٧) ظ: المصدر السابق:١٩.
٨٨) ظ: المصدر السابق: ٧.
٨٩) ظ: المصدر السابق: ١٨.

٩٠) ظ: المصدر السابق: ٩٠.

٩١) ظ: المصدر السابق: ١١٩.

٩٢) ظ: المصدر السابق: ١٠٦.

٩٣) ظ: المصدر السابق: ١٢٤.

٩٤) ظ: المصدر السابق: ١٢٩.

٩٥) ظ: المصدر السابق: ١٣٥.

٩٦) ظ: المصدر السابق: ٢٠٣- ٢١٠.

٩٧) ظ: المصدر السابق: ٣٥٣.

٩٨) ظ: البلاغة العصريّة واللغة العربية: ٧٤.

٩٩) ظ: المصدر السابق: ٨٣.

١٠٠) ظ: المصدر السابق: ١١.

١٠١) ظ: المصدر السابق: ٥٤.

١٠٢) ظ: المصدر السابق: ٥٦.

١٠٣) ظ: المصدر السابق: ٥٢.

١٠٤) ظ: المصدر السابق: ٥٧.

١٠٥) ظ: المصدر السابق: ١٤١.

١٠٦) ظ: المصدر السابق نفسه.

١٠٧) ظ: المصدر السابق: ٩٣.

١٠٨) ظهر اتجاه الدراسات النصيّة في منتصف الستينات، وعرف هذا الاتجاه بـ(لسانيّات النصّ)، (اللسانيّات النصيّة)، (نحو النصّ)، وهو نحو يتخذ من النصّ كلّه وحدة للتحليل وليست الجملة، فالجملة ليست كافية لكلّ مسائل الوصف اللغويّ.

١٠٩) ظ: البديع بين البلاغة العربية واللسانيّات النصيّة: ٣٥.

١١٠) ظ: المصدر السابق: ٨٦.

١١١) المصدر السابق: ١٧٤.

١١٢) ظ: البلاغة والنقد، المصطلح والنشأة والتجديد: ٢٦١.

١١٣) ظ: المصدر السابق: ٢٧٦.

١١٤) ظ: المصدر السابق: ٢٦٩.

١١٥) ظ: المصدر السابق: ٢٨١.

١١٦) ظ: المصدر السابق:٢٨٦، ٢٨٧.

١١٧) ظ: المصدر السابق: ٢٩٢ وما بعدها.

مصادر البحث ومراجعه:

- الأسلوب : أحمد الشايب، ط٦، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- البديع بين البلاغة العربيّة واللسانيّات النصيّة: د. جميل عبد المجيد، الهيئة المصريّة العامّ للكتاب: ١٩٩٨م.
- البديع تأصيل وتجديد: د. منير سلطان، منشأة المعارف، الاسكندريّة، ١٩٨٦م.
- البلاغة الاصطلاحيّة: عبدة عبد العزيز قلقيلة، ط٣، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ١٩٩٢م.
- البلاغة العربيّة تأصيل وتجديد: مصطفى الصاوي الجوينيّ، منشأة المعارف، الاسكندريّة، ١٩٨٥م.
- البلاغة العربيّة، قراءة أخرى: د. محمد عبد المطلب، ط٢، الشركة المصريّة العالميّة للنشر، مصر، ٢٠٠٧م.
- البلاغة العصريّة واللغة العربيّة: سلامة موسى، ط٣، سلامة موسى للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٤م.
- البلاغة الواضحة: علي الجارم ومصطفى أمين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩م.
- البلاغة والاسلوبيّة: د. محمد عبد المطلب، ط٣، الشركة المصريّة العالميّة للنشر، بيروت، ٢٠٠٩م.
- البلاغة والنقد، المصطلح والنشأة والتجديد: محمد كريم الكوّاز، ط١، الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٦م.
- البيان القرآنيّ: محمد رجب البيّوميّ، دار النصر للطباعة، القاهرة، ١٩٧١م.
- التراث والحداثة، دراسات ومناقشات: د. محمد عابد الجابريّ، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ١٩٩٩م.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطيّ، القاهرة، ١٢٩٩م.
- دراسات بلاغيّة ونقديّة: د. أحمد مطلوب، دار الحريّة، بغداد، ١٩٨٠م.
- دفاع عن البلاغة: أحمد حسن الزيّات، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٤٥م.
- رسالة التفضيل بين بلاغتيّ العرب والعجم: أبو أحمد العسكريّ، مطبوعة ضمن كتاب التحفة البهيّة والطرف الشهيّة، مطبعة الجوانب، القاهرة، ١٣٠٢هـ.
- فلسفة البلاغة بين التقنيّة والتطوّر: د. رجاء عيد، ط٢، منشأة المعارف، الاسكندريّة، ١٩٧٧م.
- فنّ القول: أمين الخولي، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ١٩٩٦م.
- المختار: عبد العزيز البشريّ، مطبعة المعارف، مصر،(د.ت).
- المدخل إلى دراسة البلاغة: د. فتحي فريد، مكتبة النهضة المصريّة، ١٩٧٨م.
- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب: أمين الخولي، القاهرة، ١٩٦١م.